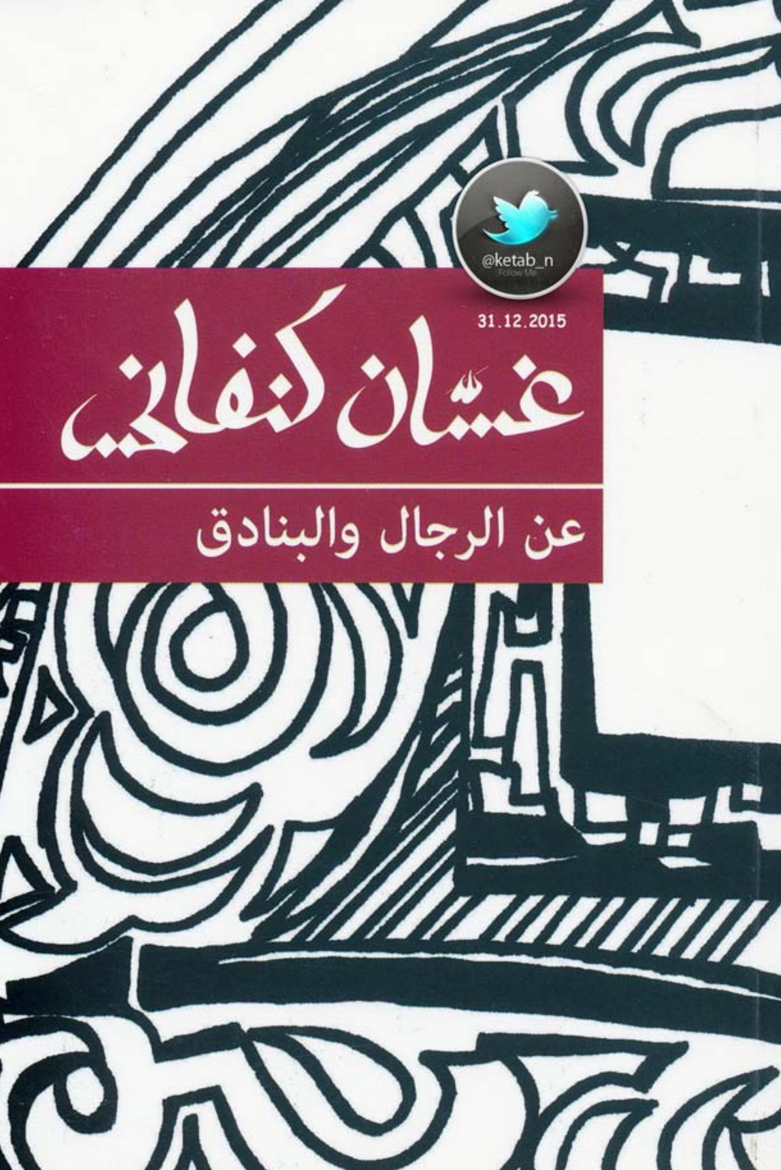
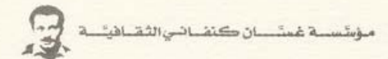

@ketab_n
Follow Me
31.12.2015
غسان كنفاني
عن الرجال والبنادق

قصص قصيرة

غسان كنفاني

عن الرجال والبنادق

منشورات الرمال



دار منشورات الرمال
قبرص
www.rimalbooks.com

الطبعة الأولى 2013
الطبعة الثانية 2014

ISBN 978-9963-610-87-7

نشرت هذه القصص في طبعتها الأولى سنة 1968
صورة غسان كنفاني تصوير آني كنفاني
تصميم الغلاف ميدا فريجي مقدسي
الخطاط: شوقي يوسف
الغلاف لوحة لغسان كنفاني



يُعتبر غسان كنفاني أحد أشهر الكتّاب والصحافيين العرب في عصرنا. فقد كانت أعماله الأدبية من روايات وقصص قصيرة متجذرة في عمق الثقافة العربية والفلسطينية، ومصدر وحيٍ لجيلٍ كامل في حياته وبعد استشهاده بالكلمة والفعل.

ولد في عكا، شمال فلسطين، في التاسع من نيسان/أبريل ١٩٣٦، وعاش في يافا حتى أيار/مايو ١٩٤٨ حين أجبر، بسبب الحرب التي أسفرت عن إنشاء إسرائيل، على مغادرة وطنه الأم واللجوء مع عائلته في بادئ الأمر إلى لبنان، ثم إلى سوريا. عاش وعمل في دمشق ثم في الكويت، وبعد ذلك في بيروت منذ سنة ١٩٦٠. وفي الثامن من تموز/يوليو ١٩٧٢ استشهد في بيروت مع ابنة أخته

لميس في انفجار سيارة مفخخة على أيدي عملاء إسرائيليين.

أصدر غسان حتى تاريخ وفاته المبكر ثمانية عشر كتاباً، وكتب مئات المقالات في الثقافة والسياسة وكفاح الشعب الفلسطيني. في أعقاب اغتياله تمّ إعادة نشر جميع مؤلفاته بالعربية، في طبعات عديدة. كذلك جمعت رواياته وقصصه القصيرة ومسرحياته ومقالاته ونشرت في مجلدات، وترجم العديد من أعماله الأدبية إلى عشرين لغة. كما دخل بعض أعماله في مناهج المدارس والجامعات، وتمّ إخراج بعضها أعمالاً مسرحية وبرامج إذاعية عربية وأجنبية عدة، واثنتان من رواياته تحولتا إلى فيلمين سينمائيين. وما زالت أعماله التي كتبها في الفترة ١٩٥٦-١٩٧٢ تحظى اليوم بأهمية متزايدة.

هذه تسع لوحات، أردت منها أن أرسم الأفق
الذي أشرق فيه الرجال والبنادق
والذين - معاً - سيرسمون
اللوحة الناقصة في هذه المجموعة.

غ. ك.

المحتويات

مدخل

نمت متأخراً جداً، كان كاتب صيني اسمه «سان تسي»، عاش قبل الميلاد بعدة مئات من السنين، قد اجتذبني تماماً وفكك تعبي واصطاد انتباهي (على أن ذلك كله خارج الموضوع الذي سأكتب عنه) وكتب يقول إن الحرب حيلة. إن الانتصار هو أن تتوقع كل شيء وألاّ تجعل عدوك يتوقع. كتب يقول إن الحرب مفاجأة. كتب يقول إن الحرب سطوة المعنويات. كتب يقول..

ولكن ذلك كله خارج الموضوع.

نمت متأخراً جداً، ودق الهاتف باكراً جداً، كان الصوت على الطرف الآخر منتعشاً تماماً، يقظاً، يكاد يكون مرحاً، فخوراً، ليس في طياته أي شعور بالذنب. قلت لنفسي - وأنا نصف نائم - هذا رجل يصحو باكراً. لا شيء يشغله بالليل. كانت الليلة ممطرة وراعدة وعاصفة، ترى ماذا يفعل - في مثل هذه الظروف - الرجال الذين يزحفون تحت صدر العتمة ليبنوا لنا شرفاً نظيفاً غير ملطخ بالوحل؟ كان الليل ماطراً، وهذا الرجل، على الطرف الآخر من الهاتف...

ولكن ذلك كله، أيضاً، خارج الموضوع.

قال لي:

- لدي فكرة، سنجمع ألعاباً للأطفال ونرسلها إلى النازحين في الأردن، إلى المخيمات، أنت تعلم، هذه أيام الأعياد.

كنت نصف نائم. المخيمات. تلك اللطخات على جبين صباحنا المتعب، الخرق البالية التي ترفّ مثل رايات هزيمة، المرمية بالمصادفة فوق سهوب الوحل والغبار والشفقة. كنت أعلّم ذات يوم في واحد منها، وكان أحد تلاميذي الصغار يدعى درويش. كان يبيع كعكاً بعد الدوام، وكنت أطارده بين الخيام والوحل والصفيح وبرك الوحل لأحمله إلى الصف الليلي. كان شعره جعداً قصيراً مبتلاً دائماً، وكان ذكياً جداً، أحسن من يكتب موضوع إنشاء في الصف. لو كان يجد ما يطعم به نفسه يومذاك لانبثق منه نابغة، كان المخيم كبيراً، وكانوا يسمونه...

ولكن هذا كله، أيضاً، خارج الموضوع.

قال لي الرجل على الطرف الآخر من السلك:

- مشروع ممتاز، أليس كذلك؟ ستساعدنا. نريد حملة إخبارية في الصحيفة، أنت تعلم.

وأنا نصف نائم قفزت إلى رأسي الجملة المناسبة: «أمضى

السيد فلان عطلة رأس السنة وهو يجمع ألعاباً للنازحين، وستقوم نخبة من سيدات المجتمع بتوزيعها في المخيمات.» المخيمات موحلة، وفساتين هذا الموسم قصيرة، ولكن الأحذية ذات الأعناق الطويلة بيضاء، وأمس مزقت خبراً وصورة: الحسناء فلانة كانت تسهر في الملهى الفلاني، أسقط الشاب الذي يجلس معها كأسه على فستانها فدلقت القنينة على بذلته. قلت: ثمنها ١٠٠ ليرة على الأقل، قلت إن هذا الثمن..

ولكن هذا كله، أيضاً، خارج الموضوع.

قال لي متابعاً:

- سنضعها في علب من الورق المقوّى، وسنجد شاحنات تنقلها مجاناً، وسنوزعها هناك مغلقة. ستكون مفاجأة.

مفاجأة.. الحرب مفاجأة أيضاً. هكذا قال الكاتب الصيني (سان تسي) الذي عاش قبل الميلاد بـ ٥٠٠ سنة، كنت نصف نائم، غير قادر على كبح الهذيان. أحياناً تأتيني هذه النوبات، خصوصاً حين أكون متعباً، وأعجز عندها عن تصديق عيني، أنظر إلى الناس وأتساءل: أيمكن أن تكون هذه هي وجوهنا حقاً؟ كيف استطعنا أن ننظفها بهذه السرعة من الوحل الذي طرشه حزيران فوقها؟ أصحيح أننا نبتسم؟ أصحيح..

ولكن هذا، أيضاً، خارج الموضوع.

قال لي وسماعة الهاتف تنزلق من يدي:

- سيأخذ كل طفل في صباح العيد علبته المغلقة، وداخلها لعبة مجهولة. حظه.

سقطت السماعة، وحملتني الوسادة إلى ما قبل ١٩ عاماً.

عام ١٩٤٩.

قالوا لنا يومئذ: سيوزع الصليب الأحمر عليكم هدايا العيد. كنت طفلاً، أمتلك سروالاً قصيراً وقميصاً من الكتان الرمادي، وحذاء مقطعاً دون جوارب. كان أقسى شتاء شهدته المنطقة في عمرها، وحين أخذت أمشي ذلك الصباح تجمدت أصابع قدمي وكساها ما يشبه الزجاج الرقيق. جلست على الرصيف وأخذت أبكي، وعندئذ جاء رجل وحملني إلى دكان قريب. كانوا يشعلون النار في خشب يضعونه في علبة صفيح، وقربوني منها. دفعت قدمي إلى اللهب وغطست فيه. ثم أكملت مشواري إلى مركز الصليب الأحمر راكضاً، ووقفت مع مئات من الأطفال ننتظر دورنا.

كانت العلب تبدو بعيدة، وكنا نرتجف كحقل من القصب العاري، ننط كي تظل الدماء تجول في عروقنا. وبعد مليون سنة جاء دوري، فناولتني الممرضة النظيفة علبة حمراء مربعة.

عدوت إلى «البيت» دون أن أفتحها. الآن بعد ١٩ سنة، لست أذكر على الإطلاق ما كان يوجد في تلك العلبة الحلم، إلاّ شيئاً واحداً، شيئاً واحداً فقط: علبة حساء من مسحوق العدس.

تمسكت بعلبة الحساء بكلتا يدي المحمرتين من البرد، وضممتها إلى صدري أمام عشرة أطفال، هم أخوتي وبعض أقاربي، أخذوا ينظرون إليها بعشرين عين مفتوحة على سعتها.

وكان في العلبة - بلا ريب - لعب أطفال رائعة، ولكنها لم تكن لتؤكل، وقد أهملت، ثم ضاعت. وظلت علبة الحساء معي أسبوعاً، أعطي أمي منها كل يوم عبو كأس من الماء كي تطبخه لنا.

لا أذكر شيئاً سوى البرد، والجليد يكبل أصابع قدميّ، وعلبة الحساء.

وكان صوت الرجل الذي يصحو باكراً ما يزال يطن في رأسي، ذلك الصباح الرمادي المتعب، حين أخذت الأجراس تدق في فراغ مروع، وكنت أعود من رحلتي القصيرة إلى الماضي الذي ما يزال ينبض في رأسي، وكنت..

ولكن هذا كله، أيضاً، خارج الموضوع!

كانون الأول/ديسمبر، ١٩٦٨

الصغير يستعير مرتينة خاله
ويُشرّق إلى صفد

اتكأ بظهره المبتل على صخرة وفرش ساقيه منفرجتين وأخذ ينظر إلى السماء: كانت غيوم داكنة تتسابق فوق رأسه وقد توهجت أطرافها بضوء الشمس فبدت كأنها تلتهب، وخيم حوله صمت ثقيل. أبداً لم يخطر في باله أن مثل هذا الوعر يمكن أن يكون موجوداً. حتى حين قال له خاله إن الطريق بين مجد الكروم وصفد تستعصي على الماعز لم يصدق، وابتسم بهدوء وهو يمد له كفيّه فيتلقى البندقية التركية العتيقة، وحين ضمها إلى صدره قال له خاله مرة أخرى:

- الطريق بين مجد الكروم وصفد وعر يستعصي على الماعز، إن ولداً مثلك سوف يموت في الشول قبل أن يقطع نصف المسافة.

ودون أن يلتفت إليه رد، للمرة العاشرة منذ الصباح، على كلمة «ولد» التي لا ينفك خاله يوجهها إليه:

- أنا لست ولداً.

- عمرك سبعة عشر عاماً، والبندقية التي تحملها تزن أكثر من

نصف وزنك، والطريق طويلة شرسة.

وانتابه الرعب لحظة واحدة فقط، فشد البندقية إلى صدره واستدار فواجه خاله من جديد:

- إذا كنت خائفاً على بندقيتك فقل ذلك بصراحة.

- أنا خائف عليك. أنت مجنون صغير ولكنني لا أريد أن أفشلك، لماذا لا تقف على الطريق وتركب السيارة فتصل إلى صفد؟ لماذا، أصلاً، تريد الذهاب إلى صفد؟ قلة رجال هناك؟

ولم يبد على خاله أنه يريد أجوبة لكل هذه الأسئلة، ففور أن انتهى من الكلام مد يده فربت على كتفه، ووضع حداً للحوار الذي استمر ساعة وأكثر من ساعة:

- مع السلامة، انتبه دائماً إلى أن هذا المدفع الذي تحمله وحش لا أمان فيه، إنه شيء قديم، ولكنه ما زال صالحاً.

هذا الخال الغريب الذي يطلق أسماء أخرى على الأشياء، يقول له ولد بدل أن يناديه باسمه، ويسمي البندقية العتيقة مدفعاً، يعرف حقيقة الأمور أكثر من أي مخلوق آخر على ظهر هذه الأرض. فحين دق بابه في أبكر الصبح ورجاه أن يستعير بندقيته لم يتردد لحظة واحدة، ولكنه أمضى أكثر من ساعة يحذره فيها من الطريق وضراوة الطريق، وكان تحذيره صحيحاً تماماً، لقد انتصف النهار ولم

يزل في منتصف الطريق، ويخشى الآن أن يصل إلى صفد مع حلول العتمة، إذا وصل!

مطر ليلة البارحة بلل التراب وغسل صخور هذا الجبل الأجرد، ورغم ذلك فإن الجفاف ما زال متبدياً بوضوح، حين شاهدته أمه يتسلل من باب البيت مع الفجر، لم تسأله عن وجهته، ولكنها طلبت إليه أن يتدثر بمعطفه، ففعل دون مناقشة. أكانت تعرف، يا ترى، خطته التي مضغها وحده ثلاثة أيام.

بعد ربع ساعة فقط مرت سيارة عتيقة قادمة من عكا، فحشر نفسه في زحام ركابها الصامتين المتدثرين بمعاطفهم، ودفع للسائق آخر قرشين كان يحملهما، فدسهما في جيبه دون أن ينظر إليهما، وحين نزل على مفرق نحف لاحقه الركاب بعيونهم الصامتة. كانت الشمس قد بدأت ترسل أشعتها الواهنة حين أخذ يتسلق الطريق الترابي الذي يفصل نحف عن الشارع العام، وكان صقيع الليل الجبلي ما زال يخز عظامه بقسوة.

دق بقبضته الباب الخشبي لدار خاله أبو الحسن. كان يعرف أن خاله قد انتهى من صلاة الفجر وهو في سبيل أن يعود إلى فراشه لينام مرة أخرى حسب عادته التي لم يغيرها منذ وعى خاله وبيت خاله. وحين فتح الباب وردت العينان المدهوشتان تحية الصباح

بسط حكايته بإيجاز، قبل أن يخطو إلى الداخل:

- الشباب في صفد يحاصرون القلعة، جئت أستعير بندقيّتك لأذهب إلى هناك، هل ستعطينيها؟

- ومن أين ستحصل على الفشك؟

- اشتريته.

- كم فشكة؟

- حوالي العشرين.

- وبعشرين فشكة تغزو قلعة صفد؟

- هل ستعيرني بندقيتك؟ سأعيدها لك بعد يومين.

- وإذا مت؟

قالها خاله باسماً كأنه لا يصدق الحكاية، ولكنه لم يبتسم ولم يتردد، كان قد أعد جواباً لكل هذه الأسئلة:

- إذا مت سيعيدها لك حسام، إنه هناك وسأوصيه بذلك.

دار خاله على عقبيه وخطا إلى الداخل، وحين غيبه الممر سمع صوته ينادي:

- ادخل أيها الولد، تناول الفطور.

ولكنه لم يدخل، كان قد قرر ذلك منذ البدء، وصاح بدوره:

- هل ستعطيني المرتينة؟

- حلمت بها الليلة؟ لماذا لا تقول يا فتاح يا عليم؟

- أريد أن أعرف، لا أريد أن أضيع وقتاً، إذا كنت لا تريد إعارتي مرتينتك فعلي أن أذهب فوراً إلى كسرة، عند أبو مصطفى مرتينة أخرى قد يعيرني إياها.

ومرت لحظات صمت طويلة، ثم أطل خاله مرة أخرى من آخر الممر وأخذ ينظر إليه بإمعان: كان طويل القامة عجوزاً لم تؤثر السنون بعرض منكبيه، مشمراً عن ساعديه المكسوين بشعر غزير شائب وواضعاً طاقية مطرزة فوق شعره الأبيض القصير. مرت لحظات أخرى تبادلا فيها النظر بصمت كأنه الامتحان، وجاء السؤال الذي كان ينتظره منذ البدء:

- هل رويت هذه القصة للعجوز؟

- أمي لا تقبل أن تسميها عجوزاً.

وابتسم، إلا إن خاله كرر السؤال وهو يقطب حاجبيه معلناً له، بهذه الطريقة، عدم عزمه على المزاح:

- العجوز، هل عرفت خطة ابنها؟

وانتابته سعادة مفاجئة، فقد اكتشف لتوه أن الجد قد بدأ، وأن خاله شرع يدرس التفاصيل. ومعنى ذلك أنه، في نهاية المطاف، سيحصل على البندقية.

خلع نعليه ودخل، فوسع له خاله طريقاً في الممر الذي كان يسده بذراعيه، ولاحقه بعينيه الضيقتين وهو يدخل إلى الغرفة المفروشة ببسط الصوف ومساند القش، وحين جلس هز خاله رأسه بأسى، وكف عن انتظار الجواب، وما لبث أن توصل إلى القرار:

- أم الحسن تغلي الشاي، لا تقل لها شيئاً، سأعطيك المدفع.

- كنت أعرف ذلك.

- أنت تستغل طيبة قلب خالك، أنت ولد شقي.. من أين اشتريت الفشك؟

- من مجد الكروم.

- وكم دفعت؟

- جنيهاً ونصف.

- من أين؟

- حلالي، أنت تعرف: قرش فوق قرش.

- على أي حال، الرصاص المسروق يقتل أيضاً.

كانت المرتينة تحت الفراش، وكان يعرف ذلك تماماً، فطوال أربع سنوات كان خاله يسمح له كل يوم جمعة تقريباً أن يطلق منها رصاصة أو رصاصتين في الحقل. وكانت، فيما بعد، تنظف وتزيت وتدفن تحت الفراش من جديد.

كانت بندقية ثقيلة، ولكنه حملها باستخفاف ودون أن ينظر إليها، وحين فتح له خاله الباب بهدوء، كي يتسلل دون أن تراه أم الحسن، علّقها على كتفه، وبخطوات بطيئة ما لبثت أن تسارعت حتى تحولت إلى هرولة، اتجه إلى الشرق، وتسلّق حواجز الحقول القليلة التي اعترضته، ثم أخذ يضرب في الوعر.

قال له خاله إن عليه الابتعاد قليلاً عن حقول مستعمرة راما التي ستلاقيه على الطريق، وإنه إذا واصل المسير شرقاً مع انحراف طفيف إلى الشمال فإنه لن يلاقي إلا بعض القرى العربية ثم سيجد نفسه في الوديان المحيطة بصفد.

مرّ من النهار نصفه فشعر بالبندقية تزداد ثقلاً على كتفه ويضرب كعبها فخذه بلا هوادة، فقرر أن يستريح هنيهة، وحين اتكأ بظهره على صخرة تقع إلى جانب الطريق الضيق الذي حفرته أقدام الإنسان منذ عشرات السنين وهي تختصر الجبال، شعر بعضلات ساقيه تتمزق، ومرة أخرى انتابه رعب مفاجيء، إلا إن البندقية كانت هناك، مستريحة فوق فخذيه، مثل شيء أسطوري يبعث في صدر الإنسان اطمئناناً مجهولاً.

- ذلك أفضل، على أي حال، من فقدان المرتينة.

قال ذلك بصوت عال ليزيد في اطمئنانه:

- الطريق المعبد مليء بالدوريات الإنكليزية، وإذا شاهدوها معي صادروها.

ربت على ذراع البندقية وابتسم بوهن:

- ثم إن القروش ذهبت إلى الفشك.. أنت تعرفين ذلك.

أوقفها أمامه وثبت كعبها بين قدميه ثم عاد فضغطها بكلتا كفيه فغاصت قليلاً في التراب الرطب، أزاح كفيه عنها بحرص ولما لم تقع عقدهما خلف رأسه واتكأ على الصخرة من جديد وأنشأ ينظر إليها.

- سوف أحصل عما قريب على مرتينة خاصة، ستكون لي وحدي، وأنت ستعودين إلى بيتك تحت فراش الصوف، وإذا سمح لك بالخروج فإنما لاصطياد العصافير والسناجيب فقط، الثعالب أيضاً، ربما، في حالات نادرة..

كانت بندقية ذات ماسورة طويلة تنتهي بفوهة فقدت مسمارها، وكان حزامها الجلدي قد انقطع فربط خاله عوضاً عنه حبلاً من الليف بلله الزيت وسودته الأيدي المتسخة بالطين سنة بعد أخرى فاكتسب لوناً قاتماً ثقيلاً. كان بيت النار يتسع لفشكة واحدة فقط تدخل إليه من فتحة في الجانب، ولم يكن يدري فيما إذا كانت البندقية في الأصل قد صنعت على هذه الشاكلة، أم أن

مرور الزمن قد انتهى بها إلى هذه الصورة الغريبة. لا شك أن مكاناً ما قد خصص لوضع مشط يتسع لخمس فشكات أو ست، وكان عليك أن تسحب المغلاق مرة إلى فوق ومرة إلى الوراء كي تسقط فشكة وراء الأخرى في بيت النار، إلا إن مثل هذا الشيء لم يعد موجوداً الآن، وربما كان أمر اكتشاف الصورة الأصلية لهذه المرتينة قد أضحى من اختصاص خبير متمكن في علم تاريخ السلاح. لقد عامل خاله البندقية هذه كما كان يعامل أشجار حقله الصغير، يقصقص عروقها، ويسلخ فروعاً منها ليطعم فيها فروعاً أخرى، يرقعها ويشذبها ويملأ نواقصها حتى تعود فتبدو كتلة واحدة من جديد. ترى ماذا فعل بهذه البندقية في ربع القرن الأخير؟ ربما كانت علاقته بها هي التي جعلته يسميها مدفعاً، فقد فقدت في الحقيقة كثيراً من صفات البندقية، ولسبب ما صارت تصدر، حين الإطلاق، صوتاً مدوياً كالرعد.

- ورغم ذلك فأنت مرتينة طيبة، وتصويبك يكاد لا يخطىء.. المهم في الأمر هو أنك أمينة، فأنت لا تخرجين رصاصك إلا من مكان واحد، إنني أرجو ذلك، على الأقل.

كان لذراعها لون بني كامد، وبدا كأنه مكون من قطعة واحدة، إلا إن ذلك لم يكن صحيحاً، فقد شهد خاله، مرة، يرقع الذراع بقطعة

من خشب الزيتون نشرها ونعمها بعناية لا تصدق، ثم دقها إلى الذراع ببراعة فائقة: كانت قطعة من الذراع قد انسلخت حين اضطر خاله، ذات يوم، لأن يستعمل عقب البندقية في قتل أفعى فاجأته في طريق عودته إلى الدار، وقد تحطم يومئذ رأس الأفعى وجزء من ذراع البندقية معاً، و لكن ذلك الحادث لم يكن ليستطيع أن يقنع أبا الحسن بأن عمر المرتينة قد انتهى.

- لو كنت أملك بندقية لما استعرتك من خالي أبي الحسن ويجب أن تكوني طيبة جداً معي كي أستعيرك مرة أخرى في المستقبل. إنه شيء غريب، أليس كذلك؟ أعني أن أذهب من مجد الكروم إلى نحف كي أستعير مرتينة أقاتل بها في صفد.. إن مرتينة أبو مصطفى في كسرا مرتينة جيدة، لها مشط وحزام وكل ما يلزم المرتينة لتكون سلاحاً جيداً ولكن أبو مصطفى لن يعيرني مرتينته، ثم إن كسرا ليست على الطريق بين مجد الكروم وصفد، وذلك حري بجعل المسافة أطول..

وفي أقل من لحظة واحدة كان قد انتصب واقفاً، واختطف البندقية وأنشأ يحث خطاه ضارباً في الوادي تجاه الشرق:

- لعن الله الخيال، لعن الله أحلام اليقظة، كما يقول الأستاذ.

وحاول أن يفكر بالأستاذ، إلا إنه هز رأسه مبعداً الفكرة بعنف.

وعلق البندقية على كتفه وشد قبضته على الرصاص في جيب سرواله وبدأ يهرول: كانت الشمس قد صارت فوق رأسه مباشرة، إلا إنها كانت سجينة غيوم تتكاثف تحتها مثل ندف القطن.

- بعشرين فشكة تغزو قلعة صفد!

هتف مرة أخرى بتلك الجملة الساخرة التي قالها خاله، والتي بدأت الآن تلح على ذهنه، وأزاح كومة عوسج بكفه وبدأ يتسلق ركاماً من الحجارة اعترضت الطريق وفكر: «لو حمل كل رجل في الجليل عشرين فشكة واتجه إلى قلعة صفد لمزقناها في لحظة واحدة.» بدأ يهبط كومة الحجارة بحذر وبساقين متصلبتين فيما أمسك ذراع البندقية، وراء ظهره، بكفه وأبعدها عن جسده ليحتفظ بتوازنه:

- هذا يحتاج إلى كثير من الجهد، وإلى قيادة، كما قال الحاج.

وحاول للحظات قليلة أن يتصور معنى هذه الكلمة، قيادة، إلا إنه لم يفلح، تصور بادئ الأمر أن مهمة القائد هي أن يدور على المقاتلين واحداً واحداً ويرشدهم إلى ما يتوجب عليهم فعله، إلا إنه استبعد هذه الصورة: «كلام فارغ، ليس الأمر بهذه البساطة.» وحين عجز عن تصور مزيد من التفاصيل استبعد الفكرة نهائياً وانصرف إلى حساب الساعات التي قضاها في الوعر: «ولا بد أن

تكون ست ساعات أو سبعاً.» وفكر في أن يستريح مرة أخرى، إلا إنه قرر مواصلة السير.

أبوه وأمه سينتظرانه ليتناول الغداء، اليوم يوم الجمعة، ووقت الصلاة قد مر منذ أكثر من ساعتين، عادة يتناول الغداء مع والديه يوم الجمعة. وسوف يفتقدانه، ثم يبدأ أبوه الطعام، وسيقول وهو يمضغ اللقمة الأولى:

- قلبك على ابنك وقلب ابنك على الحجر... هذا الصغير الشقي..

وستردد أمه برهة، حاستها السادسة ستخزها، عفريتها، كما تحب أن تقول، يوشوش في أذنها أخباراً تبعث في نفسها القلق، ولكنها تخفي ذلك عن زوجها، وتمد يدها ببرود إلى الطعام، وسوف يراقبها هو بطرف عينه، ثم يقول:

- أنت تحسبين أنه لن يأكل الآن، ها؟ تحسبين أنه يتناول طعامه الآن من قفا يده، كما تفعلين، أقسم بعظام رقبة والدي أنه يلتهم غداءه في جهنم الحمراء بكلتا يديه وملء حلقه دون أن نخطر على باله لحظة واحدة.

ولن ترد أمه، وتواصل الأكل كأن ما قيل ليس موجهاً إليها، هذه هي عادتها حين تكون، في أعماقها، منصرفة إلى التفكير بأمر آخر.

على بعد ساعة بالسيارة إلى الغرب، تقع عكا، منها إلى الجنوب قليلاً تقع حيفا. في شارع الملك فيصل يعيش ابنها الأكبر ويعمل، ففي الغرفة الخارجية من شقة فخمة في الطابق الثاني توجد عيادته، فيما يعيش في الغرفتين الداخليتين وحده، لم يتزوج بعد. في سبيل أن يناديه الناس «يا دكتور» باع أبوه قطعة زيتون، وخصص لكل عام كومة من تنكات الزيت تباع لتصرف على كتب ونظارات الدكتور قاسم.

ورغم سخرية الأب فقد أفلح الابن، وعاد من بيروت ذات يوم، وكان أول شيء فعله، حين تلاقى مع أبيه الذي ذهب ليستقبله في عكا، هو أن مد لسانه، على قدر ما يستطيع بلعومه أن يدفع، في وجهه:

- أهذا هو ما تعلمت عند الأميركان في بيروت، يا ولد يا قليل الأدب؟

وقال قاسم الذي أعد الجواب بدقة طوال الطريق:

- كلا، تعلمت الطب، أنا دكتور الآن، دكتور طويل عريض رغم أنك صرفت السنوات الماضية كلها تقول إن ذلك مستحيل، وتقول إنني ولد فاشل سأدرس ألف سنة ثم أعود إلى المحراث!

ولم يستطع الأب أن يكبت فرحة اجتاحت صدره، فأخذ بذراع

ابنه ودفعه إلى سيارة فورد عتيقة عربن عليها منذ الصباح لتنقلهما، والحقائب والكتب، إلى مجد الكروم، حيث حشت أم قاسم ثلاث دجاجات ورقبة وفوارغ، ولمت العائلة والحمولة وغرّبت إلى نصف الطريق تتلقى العائد العزيز.

- يا دكتور قاسم، منذ عشرات السنين تعلمت في القراءة الرشيدة أن..

وقاطعه قاسم ضاحكاً:

الحمار حمار ولو بين الخيول رُبّي! دائماً تقول ذلك حين أقول لك أنني سأصير طبيباً. الأمر يختلف الآن، الحمير والخيول ستبقى في مجد الكروم ومحسوبك سيفتح عيادة في حيفا.

وبنفس السرعة التي يستطيع الفرح أن يجتاح بها صدر أبي قاسم اجتاح الغضب عروق جبهته:

- حيفا؟ قلة أطباء في حيفا؟

- أين تريدني أن أعمل إذن؟

- في مجد الكروم يا ولد يا عاق.

- مجد الكروم؟ تحسب إنني حلاق أداوي الأمراض بالعلق؟ إن أتخن رأس في مجد الكروم سينقدني تعريفة، على الأكثر، ماذا؟ أتريدني أن أموت جوعاً؟

وأطبق أبو قاسم شفتيه بإحكام، انتهى الأمر، لحظات الفرح كلها انتهت، وهو يعرف تماماً أنه إذا ما استمر في الحديث فسيهدر بما لن يرضي الولد الذي وصل لتوه من آخر الدنيا. ولوهلة أحس بغصة في حلقه، ولكنه لم يشأ أن يظهر لابنه لحظة ضعف واحدة. فأنشأ يحدق من شباك السيارة فتنسحب أمام عينيه حقول الزيتون تلتمع أوراقه في الشمس كصفائح صغيرة من الفضة.

- كيف أمي؟

- بخير.

- والصغير؟

- في المدرسة، هذا الصغير يحب الحقول.

وانفرج صدره، وعاد إليه الفرح فجأة، وتبدت أمامه حقول الزيتون تشع بضوء مقدس:

- الصغير يحب الحقول، حين يعود من المدرسة يغوص في الساقية إلى ركبتيه، إن له يدي فلاح حقيقي.. في كثير من الأحيان يتسلل من البيت في الليل وينام تحت الزيتون..

ومرة أخرى جاء صوت قاسم مقاطعاً:

- أنتم تقتلون هذا الولد... تقتلونه والله العظيم! غداً سآخذه معي إلى حيفا، وسيعرف كيف يصنع مستقبله كما يشاء.

وفجأة استدار أبو قاسم وأمسك ابنه من زنده بقوة:

- انظر إلى اليهود، حين يجيء الواحد منهم ينصرف إلى العمل في القرى.. لماذا لا تفتح عيادتك في مجد الكروم؟

إلا إن السيارة وقفت، وفي اللحظة نفسها شهد أبو قاسم بوضوح، بوضوح لن ينساه مدى الحياة، نظرة احتقار عابرة تلتمع في عيني ابنه، نظرة لم تلبث أكثر من لحظة صغيرة بارقة، ولكنه استطاع أن يلتقطها وأحس بها تسقط إلى صدره كانهيار جبلي راعد، وفي اللحظة التالية علت الزغاريد وانفتح باب السيارة، ونزل قاسم فتلقفته الأذرع والأثواب المزركشة، ومن داخل السيارة، وهو مسمر في مقعده كالحجر، شهد زوجته تمرغ وجهها الأسمر الباكي على وجه ولدها العائد فتبلله بالدموع ثم تنهمر على ركبتيها وتجهش ببكاء غريب على صدره فيما أخذت تشده إليها بذراعيها المعقودتين وراء ظهره بإحكام، وحولهما كانت الزغاريد تعلن فخارها العميق بالرجل الذي ذهب فلاحاً وعاد طبيباً: يا سندي يا ولدي يا كبدي، يا ابن مجد الكروم، يا فخرها.. يا عودة الفارس، يا احرسه يا حارس، يا مئة أصبع في عين الحسود، يا احميه يا معبود!

وفيما كانت العائلة تزف قاسم إلى البيت كان أبو قاسم يسير بعيداً وراء الحشد الصاخب، يلتقط عوداً ويضرب به جانب قنبازه

فيصدر صوتاً كالتمزق، ومن مكانه شاهد الصغير يعدو وراء الحشد محاولاً تلمس أخيه الكبير العائد. قصف العود وطواه إلى بعضه ثم ألقاه إلى الأرض وبدأ يحث خطاه:

- بقي الصغير.

الدكتور قاسم يتحدث لإيفا عن منصور الذي وصل إلى صفد

من مكانه على الكرسي الهزّاز في بيت عائلة إيفا، شاهد الدكتور قاسم بيوت حيفا تتكوم على سفح الكرمل ثم تنفرش حقلاً من حجارة حتى الميناء، كلها مكشوفة لفوهة المدفع المثبت على سطح البيت، ولم يتذكر تماماً تفاصيل الخبر الذي قرأه في الصباح عن قتيلين عربيين اصطادتهما رصاصات مدفع بعيد، وعما إذا كان الحادث قد وقع قريباً من هذه المنطقة.

تناول الشاي بهدوء، وحاول أن لا يتكلم كثيراً كي لا يذهب الحديث إلى حدود لم يعرف أين تقع، وكي يضيّع الوقت فقط، دون أن ينظر مباشرة إلى عيني إيفا أو إلى عين المدفع التي كانت تطل عليه من فوق، بدأ يفرش شريحة من الخبز المحمص بالزبدة ثم طلاها بكمية كبيرة من المربى وأطبق فوقها شريحة محمصة أخرى. وقد حدث الأمر كله حين كان على وشك تناول اللقمة الأولى: فحين رفع رأسه لاحت أمامه، وراء ضباب أزرق خفيف، قباب عكا ورؤوس

أبنيتها، وفي اللحظة ذاتها تذكر مجد الكروم، وبدت في ذهنه بعيدة مغلقة بما يشبه النسيان، لم يكن بحاجة إلى أن يناقش الأمر بتفاصيله، فقد عرف أنه لن يستطيع الهروب من الذكرى التي أخذت تدقّ في عظام رأسه من الداخل، وأحسّ كما لو أن خطراً رهيباً يحدق به، بحيفا، بعكا، بمجد الكروم، بأبيه وأمه والصغير، وخيّل إليه أن شعر بدنه قد انتصب هلعاً، وكان يعرف تماماً أن لا مناص من الاستسلام للشيء المجهول الذي اكتسحه فجأة، فأعاد الشريحة إلى الصحن واستند بظهره إلى الكرسي وأنشأ يحدق أمامه دون أن يرى شيئاً بالذات.

ورغم أنه كان يحس بعيني إيفا تدرسانه بإمعان، فقد عجز عن تمثيل أي دور، وحين بدأ يفكر بإيفا تشابكت الصورة في رأسه تماماً، وضاعت كل معالمها، وكان يرجو من أعماقه لو تكف إيفا عن النظر إليه كما لو أنه شيء يستحق المشاهدة الدقيقة ولكنه كان يرتعش خوفاً لمجرد تصوره أن إيفا قد تبدأ بالتحدث إليه.

وفي اللحظة التالية فعلت ذلك ببساطة، وبالضبط حيث كان يخشى أن تبدأ:

– يبدو أن الامور أضحت في منتهى التعقيد، ولا بد لنا ذات يوم من أن ننظر مباشرة في عيني بعضنا ونبحث القضية؟

- أية قضية؟

فرشت ذراعيها أمامها، وبكفها اليمنى أشارت في دورة واسعة إلى الأفق حيث مرّت يدها فوق قباب عكا الباهتة، وفوق تل الفخار الذي بدا مسطحاً إلى الشرق من عكا، وقالت بصوت راعش:

- القضية التي تفكر بها الآن.

تناول الشريحة ومدها تجاه إيفا حتى كادت تلامس وجهها، وشيئاً فشيئاً بدأ يستعيد أعصابه:

- أنا أفكر بالقضية الصغرى، هذه اللحظة.. أترين هذه الشريحة؟ حين كنت أضع المربى فوق الزبدة تذكرت أخي الصغير.. كان يعتقد دائماً أن وضع المربى فوق الزبدة هو نوع من قلة الذوق، فأنت إما أن تأكل زبدة أو تأكل مربى ولا يجوز أن تأكلهما معاً لأنك، عند ذاك، تكون قد عبرت عن احتقار لكرامة الزبدة أو لكرامة المربى.. كان، وأعتقد أنه ما يزال يعتقد بأن الزبدة نوع من المأكل الذي يحتوي على كل العناصر التي تجعل منه شيئاً قائماً بذاته لا يجوز الاستهانة به. إن الكلمات ذاتها تعوزني، فقد كان قادراً على التعبير عن رأيه ببساطة ولكن بشكل واضح، هذه هي القضية التي كنت أفكر بها، وقد تذكرتها تماماً وأنا أرتب الشريحة، أعتقد أنك تعرفين ذلك، إنه شيء يحدث لأي إنسان بين الفينة والأخرى.

- ولكنك لم تقل لي أبداً أن لك أخاً صغيراً.

- إنه ليس صغيراً تماماً، عمره الآن سبعة عشر عاماً كما أعتقد، ولكننا اصطلحنا على تسميته بالصغير.

- لم تقل لي أبداً أن لك أخاً.

- لم أقل لك أشياء كثيرة، وأنت أيضاً لم تقولي لي أشياء كثيرة، لقد صغرنا عالمنا بأيدينا لنقذف وراء حدوده بكل ما عدانا، وقد كان عالماً من فرط ما صغرناه، قابلاً لأن يمتلئ بالسعادة.

- ما الذي يفعله أخوك في القرية؟ لماذا لم تحضره إلى هنا؟

- إنه ولد يحب الحقول، هكذا يقول أبوه دائماً، وهو مثل حصان أصيل لا يعيش إلا في المروج.

ناولته الشريحة فأخذها ببرود، وكي لا يعقد الأمور بدأ يأكلها دون شهية، وكان أخوه منصور في الوعر المحيط بصفد يرش حفنة من الزعتر الجاف في نصف رغيف أسمر شديد الخشونة، ويعيد النصف الآخر إلى جيب سرواله الكبير فيسقط فوق الرصاص فيما يواصل عقب البندقية التركية القديمة ضرب مؤخرة فخذه كلما اضطرته الصخور للقيام بقفزة واسعة.

نقل البندقية إلى كتفه الأخرى، كان حبل الليف قد حز فوق قميصه الأبيض خطاً داكن السمرة وتحته مباشرة كان يحس كأن جرحاً

قد فتح في أعلى كتفه حيث كان الحبل يتحرك كالمنشار حاملاً ثقل البندقية كله، لا شك أن الخال لم يفكر بهذه المعضلة ولو فعل لوجد لها حلاً بشكل أو بآخر، ولكنه في واقع الأمر لم يكن يحتاج إلى أن يعلق البندقية الثقيلة على كتفه مسافة طويلة، كان يحملها من وسطها بكفه الكبيرة الخشنة ولم يكن يبتعد بها كثيراً عن الدار، أما في أول عهده بها، حين كانت الثورة تدفع به إلى الجبال، فلا شك أن حزامها الجلدي الأصلي كان ما يزال في حالة جيدة.

وفجأة شاهد الطريق على بعد أمتار قليلة، وفي لحظات تعرف على مكانه تماماً، فرغم أنه لم يأتِ إلى صفد الا مرتين أو ثلاث مرات، فإنه يستطيع أن يتذكر معالم الطريق الرئيسي إليها، دون أن يطأ الأسفلت حيث الخطى في موازاة الطريق مراقباً بعينين حادتين كل شيء حوله، مصيخاً السمع لكل حركة، محاولاً أن يستوعب كل شيء حوله دفعة واحدة.

وحين صار في السوق ملأت أنفه روائح خضار وسلال ومطر مبكر، كان الناس يتحركون دون أن يعيروا انتباهاً لأصوات الرصاص التي تصبغ الجو بتوتر لا يحتمل، وقال لنفسه وهو يحث الخطى: «غريبون أهل المدن، كأن الأمر لا يعنيهم» ووسع الطريق لسيارة عتيقة أخذت تكرج بين الناس وتشق طريقها بزمور مبحوح، كانت

ملطخة بالطين على كلا جانبيها، وكان زجاجها الأمامي محطماً، وبدت خروق الرصاص في مقدمتها مدروزة درزاً، على خط مستقيم، وفي أحد هذه الخروق ثبت شخص ما علماً جاعلاً عصاه في حجم الخرق تماماً بحيث لم تعد هناك حاجة لربطه بخيط أو بشريط معدني، وكان العلم قد خيط بقماش نظيف لامع وأخذ يرف، بسبب قصره، رفات سريعة، مصدراً، عبر الضجة التي يحدثها المحرك والزمور والرجال الأربعة في داخل السيارة، حفيفاً مسموعاً.

واجتازته السيارة فجأة: فقد كان سقفها، منذ المنتصف، مقطوعاً كأنما بمنشار، وكان شكلها مضحكاً، وبدا له أشبه ما يكون برجل لا يلبس سروالاً، وفي داخلها كان الرجال قد قلبوا المقعد الخلفي وأسندوا ظهره على ظهر المقعد الأمامي وأخذوا، من هناك، يتفرجون على الناس. وأمام أقدامهم كانت قد امتدت مساحة صغيرة هي المجموع الذي تكوّن من المكان الذي كان يشغله المقعد وصندوق السيارة الخلفي الذي نزع غطاؤه حينما نشر السقف المعدني وكانت هذه المساحة مملوءة بصناديق تحتوي خبزاً وخضاراً وأباريق ماء.

وحين صارت السيارة أمامه أشار أحد الرجال الثلاثة إليه بكعب مسدس طويل كان يضعه في حضنه:

- ها هو ذا فلاح يريد أن ينقذ صفد. إنه يحمل عصا.

كانت السيارة تسير ببطء شديد بين زحام الناس، وضحك الرجلان الآخران. كان أحدهما يحمل بندقية فرنسية قصيرة ويصالب صدره بالأمشاط فيما أخذ الآخر يعلك شيئاً.

- بكم اشتريت هذه العصا؟

- عصا تنزل على جنبك.

قالها بهدوء، ولكن بصوت ملتهب. كان قد أحسّ بإهانة مريرة له ولبندقيته، ولكنه ظل يحسد الرجل الجالس في الوسط مع بندقيته الفرنسية القصيرة وأمشاط الرصاص التي تملأ صدره، وواصل صاحب المسدس الإشارة إليه بكعب مسدسه، فيما كانت السيارة تبتعد شيئاً فشيئاً، ثم سمع صوته:

- لو كنت رجلاً قد المقام لنسفت رأسك برصاصة واحدة.

رفع البندقية عن كتفه وحملها أمام صدره، كانت رصاصة واحدة معدة في بيت النار، ولأول مرة بدت له تلك البندقية العتيقة شيئاً حميماً ودافئاً، وصاح بكل ما في طاقته، ليتيسر للرجل صاحب المسدس أن يسمعه بوضوح:

- لو كنت رجلاً لنزلتَ.

ورغم ذلك فإنه لم يكتف بمجرد الكلام، فأخذ يعدو وراء

السيارة وقبل أن يوفق إلى التشبث بشيء في مؤخرتها كان أحد الرجال، ذلك الذي لا يكف عن العلك، قد وقف وأنشأ يرتب المفاوضات:

- عيب يا شباب.. عيب..

واتجه إليه، وهو ما يزال يهرول وراء السيارة:

- الأخ من أين؟

- من مجد الكروم.

- وماذا تفعل في صفد مع هذه البندقية؟

- سمعت أنكم تحاصرون القلعة فجئت أشترك معكم.

- تحاصر القلعة؟

والتفت إلى الرجلين الآخرين اللذين أخذا يضحكان باستغراق، ثم انحنى فرفع صندوقاً وضعه فوق صندوق آخر فوسع مكاناً جديداً.

- هيا، تعال معنا، فليس من الكرم في شيء أن نتركك تركض وراء السيارة إلى الأبد.

مد له يده فتمسك بها ولما شده قفز واستقر على أرض السيارة الحديدي. وقبل أن يسوي جلسته تماماً دفع له أحد الرجال رأس بندورة وأخذ يلتهمه، كان جائعاً ومتعباً وغريباً، ولكن قصة القلعة كانت تأكل رأسه.

- أنتم لا تحاصرون القلعة؟

- القلعة مهجورة منذ كان آدم طفلاً.

- ماذا تفعلون إذن؟

- نناوش حارة اليهود.

- والقلعة؟

- يقوص الإنكليز عليها إذا تحرك فيها فأر، ولكننا نسيطر عليها.

وانتابه شعور مفاجئ بأنه غير ذي نفع، وأنه لا يعرف شيئاً، وأن مغامرته كلها فكرة هوجاء لا أساس لها. كانت السيارة قد خرجت من الزحام فضاعفت سرعتها وأخذت تنط ككرة من المطاط، فوق شارع مملوء بالحفر، وقال الرجل صاحب المسدس:

- أبعد فوهة هذه العصا عن وجهي، قد ينطلق الجحيم المختبئ في داخلها إذا حطت ذبابة على الزناد.. أنا الذي أعرف هذا النوع من السلاح.

قذف بما تبقى من رأس البندورة إلى الطريق واعتدل في جلسته، ولكن الرجل صاحب المسدس مضى شوطاً أبعد:

- لو لم نصادفه لاحتل القلعة بعصاه وطردنا منها!

فكر قليلاً، لبرهة واحدة، مقتنعاً بأن الرجل صاحب المسدس مخلوق لئيم وأن من الواجب تأديبه بطريقة أو بأخرى، وبهدوء

وضع بندقيته فوق صناديق الخضار وثبت عينيه في وجهه:

- هل تباطح؟

- الأخ عصبي.

- هل تباطح؟

ودرسه الرجل صاحب المسدس بإمعان وهو مكوم بتحفز مشبوب على أرض السيارة: كانت تبدو كتفاه تحت القميص مكورتين صلبتين، وكان زنداه عريضين كقطعتي حطب، أما كفاه فقد كانتا من فولاذ مطلي بلون بني. رفع بصره وحدق إلى وجهه: كان فتياً وكانت عيناه سوداوين تغوران قليلاً تحت حاجبيه الكثين وتلتمعان كعيني ضبع، وكان ينبعث منهما تيار من العزم لا يناله الوهن.

وببساطة توصل إلى قرار، فالتفت إلى الأستاذ معروف وخبط بيمناه على فخذه:

- مثل هذا الفتى لا يباطح.

- إذن اصمت.

وأصر الرجل صاحب المسدس، بما يشبه المزاح، ولكن ليس مزاحاً:

- إنه يأكل رأس الحية، ولكن ذلك يجب أن لا يمنعنا من التعرف إليه، أنا رجل واقعي، ولذلك أقول أن مثل هذا الفتى لا يباطح،

وأعترف لك علناً يا أستاذ معروف أنه قادر على بطحي في أقل من دقيقة، وذلك شيء لا أستطيع أن أحبه، أن يأتي فلاح من مجد الكروم إلى بلدتك ويتحداك في وسطها ثم يكون قادراً على أن يبطحك.

وقفت السيارة فجأة، والتفت السائق الذي لم يكن قد اهتم برفاقه طوال الرحلة، كان يلبس سترة زرقاء متسخة وكان قد أطلق لحيته منذ زمن قصير فهي غير طويلة وغير قصيرة وبدت غير مشذبة فأعطت وجهه مظهراً بائساً، فتح باب السيارة مقرقعاً صاخباً وأبلغهم، دون أن يلتفت إليهم:

- ليس في وسعنا الاستمرار، هنالك رشاش لعين يسد الطريق وأنا لا أثق بهذه السيارة، فقد يخطر على بال المحرك أن يستريح ونحن في نصف منطقة الخطر.

قفز الرجل صاحب المسدس فوق الصناديق وأخذ يضحك:

- دائماً تلقي نفس المحاضرة علينا: الرشاش والمحرك اللعين والطريق، أنت لا تصدق أننا نفهم؟ ها؟ أنت لا تصدق.

إلا إن السائق لم يجب، بل اتجه إلى مؤخرة السيارة وسحب أكبر الصناديق وثبته فوق كتفه وبدأ، وهو يكاد يلتصق بالجدار، يصعد الطريق إلى فوق.

قال الأستاذ معروف:

- عليك أن تحمل صندوقاً يا منصور وتلتحق بنا.

- إلى أين؟

- نوزع الأكل على الرجال، إنهم لم يتناولوا شيئاً منذ الصباح.

علق منصور بندقيته، بحبل القنب، على كتفه وحمل صندوقاً كانت تغطيه رؤوس البندورة المخبوصة وحث الخطى وراء الأستاذ معروف.

كان زقاقاً مبلطاً يمتد بين الجدران الصخرية لبيوت واطئة، شبابيكها الخشبية المشغولة بدقة وحذق مغلقة بإحكام، وكان الزقاق يتعرج صاعداً التلة، متسعاً حيناً، ضيقاً حتى لا يكاد يتسع لرجلين معاً حيناً آخر، كانت كل حنيّة تبدو وكأنها نهاية الزقاق، الا إن ذلك كان مجرد خداع، وراء الزقاق، فوقه، فيه، لا أحد يدري، كانت أصوات الرصاص تصفر، وكانت طلقات مجهولة تقشط حواف السقوف وتقدح شرراً كلما انزلقت على حجر صخري، وكانت، ثمة، رائحة هي مزيج من الصمت والموت والخوف والبطولة والقلق الذي تعانيه زوجات لا يعرفن إذا كان أزواجهن ما يزالون على قيد الحياة.

لحق منصور بالأستاذ معروف، وكان إبريق من الفخار منقوش بعناية وذو فوهة معقولة، يخض فوقه صندوقه، وكان بوسعه الاستماع إلى لهاث الأستاذ وهو يصعد، بحذائه الأسود الثقيل، بلاط الزقاق:

- أين هم؟

- من؟

- اليهود؟

- على الأسطحة، ووراء نوافذ حديدية لا يخرقها إلا الرصاص الإلهي.

- وأين نحن؟

- سترى الآن... وراء المنعطفات، وأمام كل ثقب يتسع لذبابة.

وضع الأستاذ معروف صندوقه وثبت كفيه على خصره، وكان السائق قد انتهى إلى آخر الزقاق حيث بدا الفضاء متسعاً بين جدارين، فوضع صندوقه وحذا الرجلان، رجل المسدس ورجل البندقية، حذوه، وأخذا يطلان من فوق كتفه إلى ذلك الفضاء.

قال الأستاذ معروف:

- إنه يترقب فرصة، أترى هذه الساحة الصغيرة؟ إن رشاشاً لعيناً يحكمها من سطح أعلى بناء في حارة اليهود، لقد قتلوا رجلاً يوم أمس، وكادوا يقتلون طفلاً اليوم... وفي الصباح الباكر أصابوا ثلاثة قطط.

- قطط؟

- نعم، صاحب الرشاش يريد أن يفهمنا أن أحداً لن ينجو، وأنه

يحسن التصويب إلى حد يصطاد فيه من على بعد نصف كيلومتر أو أكثر، قططاً.. أغلب الظن أنه يضع على مدفعه منظاراً.

وخبط الأستاذ معروف فوق جيوبه، ثم سحب قلماً قصيراً وقرفص:

- تعال أشرح لك.

وقرفص منصور إلى جانبه وحاول أن يلحق الخطوط المتعرجة التي أخذ الأستاذ معروف يرسمها، بدقة وبطء، فوق بلاطة ناصعة البياض.

يجيء طريق عكا مُشرِّقاً ثم يصعد إلى الشمال لينصب انصباباً من هناك في صفد، مشكلاً نصف دائرة حول تلة مزروعة بالصخر والزعتر البري، إذا قلنا أن مركز صفد هو القلعة التي تعلو هضبة عالية مهدمة الجوانب عتيقة متعبة فإن ذلك يسهل تصور البلد، فإلى غرب هذه القلعة تقع حارة الأكراد، منها إلى الشرق تمتد حارة اليهود على سفحين، والى جنوبها تقع حارة الوطا، أما السوق فهو رقعة صغيرة تفوح برائحة طازجة ندية تقع بين حارة الوطا وحارة اليهود وحارة القلعة، حيث تتناثر البيوت كمحاولات لاهثة لارتقاء الهضبة التي تتوجها القلعة ذاتها، بحجارتها الثقيلة المقنطرة.

غرب القلعة تنبسط حارة الأكراد ببيوتها الحجرية، المطلية

بالكلس، حيث تبدو، إذا ما نظرت إليها من القلعة، حمامة ناصعة البياض ذات جناحين مفروشين فوق بساط من الاخضرار الداكن.

من حجارة اقتلعت في مقالع الجرمق بنيت البيوت المقنطرة ذات القباب، أهالي صفد يسمونه حجراً مزّياً، وهو حجر قادر على الاحتفاظ بروحه الجبلية: وحشياً خشناً صلباً، سنة وراء الأخرى، كأنه ما يزال جزءاً لم يقتلع بعد من جبله، بوسعك دائماً أن تحضر حجارة من الجبال، وأن تجعل منها جدراناً لبيوت عالية أو واطئة، فقيرة أو غنية، ولكن حجارة الجرمق هي الحجارة الوحيدة التي لا تستطيع أن تسلب منها روحها أو تعطل انتسابها إلى الجبل، حتى إذا وضعتها في جدار مستقيم وأنيق، فأنت لا تستطيع أن تمر بها دون أن تحس أنك في جوار جبل مغلوب على أمره، مشتت ومحكوم، ولكنه ما يزال يحمل حنينه الصارم للوعر، ويفوح برائحة البرّية، كأنه ما زال مغروساً في غابة من الزعتر.

في صفد أربعة آلاف يهودي لم يكونوا فلاحين في أي يوم من الأيام، ولكن أحداً لم يكترث بذلك، لقد عاشوا في دكاكينهم الصغيرة لفترة طويلة، باعوا الناس أشياءهم، وتبادلوا التحية معهم وتجاذبوا الحديث ووجهت إليهم الدعوات إلى الغداء والعشاء، كانوا هناك منذ زمن بعيد ولذلك فهم يتحدثون العربية، ويتسمون بأسماء

عربية، ويقرأون كتباً وصحفاً عربية، وكان كل شيء يبدو منطقياً إلى حد أطلق فيه سكان صفد عليهم اسم اليهود العرب، ولم يكن ثمة أي إشكال لولا أن بدأت الدكاكين الكبرى تنبثق في الأرض كأنها تزرع، خلسة، في الليل. قالوا: جاء الأشكناز، وأخذوا في جانب من حي اليهود ركناً معزولاً مغلقاً على نفسه، حدث ذلك بصورة لم تلحظ بادئ الأمر، الجدود لم يكترثوا بالأمر كثيراً، وها هم ذا الآن يجلسون وراء مكاتبهم الخشبية في أكبر محلات البلد: إسكندر، هل من صفدي لا يعرف دكاكين إسكندر الذي يبيع الخردوات؟ أم روشر برونفلت الذي يبيع مواد غذائية؟ وهناك يوسف بندرلي أيضاً، يختص بالألبان والأجبان، يشتريها من حيث لا يدري أحد ويملأ بها دكانه التي لم تشاهَد مغلقة حتى في أيام السبت، ووراء طاولة زجاجية عريضة تعامل الناس دائماً مع الخواجة بار في صيدليته ذات الأبواب الخشبية، ولا يعرف الكثيرون إيدل مايبرك معرفة شخصية، ولكن كل صفد تعرف أنه هو صاحب أوتيل المركز، وأنه يدير بصورة شبه مجهولة عدداً من المطاعم والفنادق الصغيرة.

إيدل مايبرك، إيدل.. إيدل.. من الذي كان يظن أنه من الهاغاناه؟ وأن فنادقه ومطاعمه وبيوته مليئة بالأسلحة؟ الخواجة بار، ذلك الذي أطل على الناس من وراء طاولته الزجاجية بوجه يشبه وجه

الدجاجة، من الذي كان يراهن أنه رجل عسكري يحضر سلاحاً ويرسم خططاً، بندرلي.. برونفلت.. لقد أرسلوا خصيصاً للمستقبل، كان كل شيء محضراً تماماً، أغلب الظن، وهو لم يفاجئ عرب صفد فقط، بل فاجأ اليهود القدامى فيها أيضاً، وقد قالوا ذلك، قالوه؛ قالوه، ثم سكتوا.

لقد شاهدت صفد عشرات من الحاخامية يدرجون فوق الأزقة المبلطة إلى الكنيس عاماً وراء الآخر. لديهم ثلاثة منه في صفد، هل كان هؤلاء الشيوخ ذوو اللحى البيضاء الطويلة وأغطية الرأس السوداء المكوّرة، هل كانوا يعرفون؟ هل كانوا؟ أنت لا تستطيع أن تقول شيئاً الآن. الإنكليز كانوا يعرفون، هذه حقيقة تستطيع أن تقولها وأنت مطمئن: لقد جاؤوا بالسلاح، سلاح كثير خفيف متوسط وثقيل، فكيف كان الإنكليز يكتشفون عندنا خراطيش الصيد، ولا يكتشفون عندهم كل تلك الأسلحة؟ وانظر إليهم الآن، إنهم يسمحون لهم بإطلاق النار، ولكن إذا أطلقنا رصاصة، عندئذٍ يجيء المستر برهم رئيس البوليس ورجاله ركضاً بالسيارات وعلى الخيل ليلهبوا مؤخراتنا بالرصاص وبالكرابيج أيضاً، إذا استطاعوا، إنهم يسمحون لهم بالتسلق إلى القلعة بين الفينة والأخرى، ماذا يفعلون هناك؟ المستر برهم وحده هو الذي يعرف، يركّبون مدفعاً؟ يحفرون

خندقاً؟ يدفنون رشاشات؟ لا يستطيع أحد أن يقول، المستر برهم وحده يعرف، ولكن إذا حاولنا الذهاب إلى هناك، لنرى ماذا فعلوا، فسوف نجد إنكليزياً مسلحاً وراء كل حجر، وإنكليزياً مسلحاً آخر أمامه يقولان لك: غو باك!

إنه قتال غير شريف، قبل يومين فتح إيدل مايبرك وابنه رشاشين على صفد طوال ساعة، من أين؟ من القلعة ذاتها، وكان الإنكليز يغطون في نوم عميق على أسرتهم في مركز جبل كنعان وفي دار الحاج فؤاد الخولي التي جعلوا منها مركزاً آخر لهم بين حارة الأكراد وحارة اليهود، وفي مركز البوليس في حارة الوطا، وطوال ساعة كاملة من الرش لم يَصْحُ واحد منهم، ولكنهم جميعاً استيقظوا وجاؤوا راكضين حتى قبل أن يرتدوا سراويلهم حين بدأ الشباب يتسلقون الطريق إلى القلعة، قتال غير شريف، كأنك تباطح بيديك العاريتين سيارة مصفحة.

كانت كفا الأستاذ معروف عاريتين، أيضاً، وكان قلمه القصير يدور فوق البلاطة مخلفاً خطوطاً متعرجة، مرة فوق مرة تحت حتى استحالت البلاطة إلى خطوط رصاصية كثيفة لا بداية لها ولا نهاية، إلا إن القلم عاد فرسم، في رقعة ما تزال نظيفة تقع بين الخطوط المتشابكة، نقطة مدوّرة واحدة.

- نحن هنا الآن، بيننا وبين حارة اليهود صف من الإنكليز يتعقبوننا كالكلاب البوليسية، ولذلك نحن لا نقف في أمكنة معينة، ذلك ليس من الذكاء في شيء، والساحة التي أمامك مكشوفة من أوتيل المركز، أوتيل إيدل مايبرك وابنه، الإنكليز مصابون بالعمى، بكل ما يختص باليهود، ولكن عيونهم عشرة عشرة علينا... هل تفهم من كل ذلك شيئاً؟ نحن هنا مثل رجل واحد يقاتل مدينة بأكملها وهو متربع على سطح مئذنة، يأتيه الرصاص من كل جنب، كلا هذا المثل غير صحيح بالمرة، دعنا نقل إنها مئذنة مقلوبة، أو بئر لعينة محاطة بألف عين.. هل تدرك ذلك؟ ما الذي أتى بك من مجد الكروم؟ قلة رجال في صفد؟

لقد جاءه السؤال فجأة، دون أن يرفع الأستاذ معروف رأسه كأنه كان يتحدث إلى رجل آخر ملتصق بالبلاطة حيث كان القلم ما يزال يصدر صريره الحاد وهو يدور فوق نقطة داكنة السواد، تلتمع كأنها من زفت، وقرر أن لا يجيب، فهو نفسه في حقيقة الأمر لا يعرف الجواب، ومن جديد التجأ إلى عالمه المرتب بهدوء في رأسه، وقرر مرة أخرى أن مثل هذا السؤال لا يجاب عليه، فأنت لا تستطيع أن تسأل مقاتلاً لماذا تقاتل؟ كأنك تسأل رجلاً لماذا أنت ذكر.

وأنقذه الصمت الذي خيم على حين فجأة، فرفع الأستاذ

معروف رأسه وسارع إلى دس القلم الصغير في جيب قميصه، كانت نسمة من الريح الباردة، القادمة من الثلوج الجبلية حاملة معها الصقيع قد اكتسحت الزقاق فبدت وكأنها هي التي أطفأت أصوات الرصاص. نهض الأستاذ معروف واقفاً وحذا منصور حذوه وأخذا ينظران إلى نهاية الزقاق، كان الرجال الثلاثة قد غادروا أماكنهم مع صناديقهم، وغابوا عن مرمى البصر، ولكن الجو كان ما يزال يعبق برائحة الخطر.

قال الأستاذ معروف وهو يشيل صندوقه ويثبته على كتفه:

- هيا، يبدو أن الطريق أمان.

وانحنى منصور ليرفع الصندوق، وفقط حين تمسكت كفاه بطرفه بدا كل شيء، لقد حدث الأمر على حين فجأة، اجتاحته دوامة تشبه الحمى أخذت تطن في جبينه، إن مثل هذا الأمر حدث معه مرتين أو ثلاث مرات فقط في حياته كلها، مرة حين كان وراء المحراث في حقل أبيه وسمع صوت انقصاف معدني انكسرت فيه شفرة المحراث إلى شقفتين، ومرة حين مات مهره الأبيض بين يديه. إن أكثر الأمور خطورة هي وحدها التي تستطيع أن تخلخله على هذه الصورة المحيّرة، كأن قوة مجهولة رفسته، فجأة، على قفاه. لحظة واحدة فقط عرف فيها بصورة لا يتطرق إليها التردد أن

شيئاً خطيراً قد حدث له وأن قوى الأرض والسماء جميعاً لن تستطيع دفعه لحمل الصندوق.

رفع الأستاذ معروف صندوقه من جديد وتركه واقفاً في مكانه، الا إن منصور لم يتحرك، وأخذ من مكانه ذاك يراقب الأستاذ معروف وهو يصل إلى نهاية الزقاق، يتوقف هنيهة فاتحاً حواسه على أقصاها متحفزاً كأنه على وشك أن يقفز في الهواء، ينقل الصندوق إلى كتفه الأخرى، ويفرك بكعب حذائه البلاط استعداداً للحظة الحاسمة، ثم ينطلق فجأة عبر الفضاء المفروش وراء الزقاق.

وفي اللحظة التالية انهار سيل من الرصاص. وكان بوسع منصور أن يشهد حباته الملتهبة تكشط بلاط الساحة في محاذاة خطوات الأستاذ معروف، وأخذ قلبه يخفق بشدة، كانت زغاريد الموت تضج في رأسه، وكان الأستاذ معروف يركض، قافزاً إلى اليمين وإلى اليسار في خط متعرج مجنون، وحوله، وفوقه، أمامه ووراءه فُتح المزلاج وتدفقت أصوات الرصاص مدوية صافر، جوفاء وكثيفة، فيما أخذت الريح القادمة من الجبال تعوي بصوت تعيس مجروح.

كان ثمة برميل مملوء بشيء ما قائماً وسط الساحة، وكان بينه وبين الأستاذ معروف خطوات ليس غير، ولكنها كانت تبدو طويلة ممطوطة لا تنتهي. كان الأستاذ معروف ما زال متمسكاً بصندوقه

فوق كتفه بحيث يحجب رأسه عن الرصاص، وزغاريد الموت ما زالت تضج في رأس منصور كأن عشرات من العيون الحزينة آخذة، أمام حفرة في التراب، تودع شهيداً آخر. وفي اللحظة التالية وصل الأستاذ معروف إلى البرميل والتصق بالأرض وراءه تماماً، كأنه مسمار دق بالمطرقة على حين فجأة، ووصل الرصاص معه وقرقع صاخباً حين اصطدم بالبرميل مخلفاً ثلاثة ثقوب في وسطه أخذت المياه تتدفق منها كأنها تنطلق من فوهات أباريق فخار.

وخيّم صمت بارد من جديد، إلا إن زغاريد الموت كانت ما تزال تملأ جبين منصور، وكان الأستاذ معروف مكوماً وراء البرميل، يحاول أن يدور حول نفسه، وقد فعل ذلك بصعوبة كي لا يبدو أي طرف من أطرافه للعين البعيدة التي ترصده من أعلى عمارة في حارة اليهود. وحين رفع الأستاذ معروف يده مشيراً لمنصور استطاع هذا أن يدرك كل شيء، بالبرميل الذي بدأت مياهه تتسرب من ثلاثة ثقوب لن يصلح ليكون متراساً بعد دقائق قليلة، حين تنفد كل مياهه، وعلى الأستاذ معروف أن يختار بين ميتتين: إما أن ينطلق من وراء البرميل لتحصده طلقات الرشاش كما حصدت القطط، ذلك الصباح، أو أن ينتظر وراءه دقائق أخرى، حتى إذا فرغت المياه منه، صار بميسور الرصاص أن يخترق جداريه، وأن يصل إلى بدنه.

كان واضحاً أن اللعبة راقت للرشاش البعيد، فبعد هنيهة واحدة أطلقت رصاصة أخرى فحفرت ثقباً رابعاً بدأت المياه تتدفق منه، ودوّر الأستاذ معروف عقبيه محتاراً، وفي اللحظة التالية وصلت رصاصة جديدة فمست سطح البرميل بصفير متطاول محذر، وعلى الطرف الآخر من الساحة أطلت ثلاثة رؤوس غير واضحة المعالم.

خطا منصور إلى طرف الزقاق وأطل برأسه حذراً متصلباً، كانت العمارة العالية تبدو بين البيوت الواطئة مثل قلعة ذات قاعدة عريضة، وعلى السطح كان سور من أكياس الرمل قد ارتفع فوق الجدار، واستطاع أن يشهد، من مكانه، مربعاً صغيراً من الفراغ وسط سور الأكياس، وخيل إليه أن شيئاً أسود يتحرك وراءه، بل خيل إليه أنه شهد المدفع نفسه يلتمع فولاذه على ضوء الشمس الغاربة.

اطمأن إلى رصاصته في بيت النار ومدّ فوهة البندقية ببطء وحذر على زاوية الجدار وصوّب بهدوء ودقة. خاله قال له: «لا تهتم بمسمار التصويب اهتم فقط بهدوء أعصابك» وكان يبدو مربع الفراغ في سور الأكياس إطاراً لفوهة بندقيته حين انفتح الرشاش مرة أخرى بغزارة، وأخـذت الثقوب في البرميل تتكاثر بصورة شيطانية وتتدفق المياه منها متزاحمة متوترة، إلا إن ذلك لم يهز أعصابه، وفي اللحظة التالية شد الزناد فقصف رعد وحشي لا

يصدق. ثم خيم الصمت.

حشا رصاصة أخرى في بيت النار واستلقى على البلاط المبتل، وفي وسط الساحة كان الأستاذ معروف يتحفز من جديد فيما خيم صمت بارد ليس فيه إلا صوت انصباب الماء من ثقوب البرميل فوق بلاط الساحة، رفع الأستاذ معروف صندوقه فوق كتفه، وفرك كعبي حذائه الأسود الثقيل وانطلق يعدو، إلا إن رصاصة واحدة لم تطلق، وطوال لحظات متوترة لم يسمع إلا قرع خطواته فوق البلاط، وعلى الطرف الآخر من الساحة، في بداية الزقاق الآخر، وسع له الرجال الثلاثة طريقاً ليقذف بنفسه فيه، فيما استرق منصور نظرة أخرى إلى سور الرمل، كان يبدو صامتاً وغير ذي نفع، وفي اللحظات التالية تصاغرت أصوات المياه، ثم كفت ثقوب النصف الأعلى من البرميل عن إطلاق الماء، وجاءه صوت عال من طرف الساحة:

- آه يا سبع يا أبو العصا...

إلا إنه لم يغضب، هذه المرة، بل أخذ يضحك بأعلى صوته، وهمدت في رأسه زغاريد الموت مطوية مثل قطعة قماش.

شباط/فبراير ١٩٦٥

أبو الحسن يقوّص على سيارة إنكليزية

أنزلته السيارة على مفرق نحف، وأطفأ الرجل صاحب المسدس محركها ونظر إليه بإمعان، وكانا في ذلك الفراغ العابق بصهيل الزيتون رجلين من عائلة واحدة، هزّ الرجل رأسه وأشار إلى البندقية بين كفي منصور!

- لقد كانت هذه العصا ذات نفع كبير.

ونظر منصور إليها، إلا إنه لم يستطع أن يقول شيئاً فقد بدت بين كفيه قطعة ميتة من الخشب المدهون، وجاءه الصوت مرة أخرى:

- دعنا نرك مرة أخرى في صفد دون قتال!

ومرة أخرى لم يجد ما يقوله، فيما هدر المحرك من جديد وحل الرجل المكبح فبدأت السيارة تنزلق على المنحدر بليونة، وكانت كما تصورها دائماً، رجلاً لا يلبس سروالاً، وحين غابت بين جذوع الزيتون تنشق نفساً عميقاً وبدأ يصعد الطريق إلى نحف.

كان خاله في الوعر فوضع البندقية في المطبخ، حيث كانت أم الحسن راكعة أمام العجين غارسة فيه قبضتيها السمراوتن حتى الزندين، واكتفت حين رأته بالنظر إليه وهي تعض على شفتيها، ووضع منصور أصبعه مستقيماً فوق فمه طالباً منها أن تصمت.

وبهدوء غادر نحف، عبر السلاسل الحجرية التي تفصل حقول الزيتون، هابطاً الطريق إلى مجد الكروم حيث وصلها قبل وقت الغداء، ومن بعيد شاهد سيارة أخيه الزرقاء تقف أمام الباب، سادة نصف الطريق، إلا إن ذلك لم يشوشه.

وأمام الباب المفتوح، المفتوح دائماً، فك رباط نعليه وخلعهما وانسل إلى الداخل، وحين مرّ أمام باب الديوان شاهد أباه يصلي، وشهده أبوه أيضاً، إلا إنه خطا متعجلاً إلى حيث كانت أمه تقف في ساحة الدار الطينية، وانكب على يدها فقبلها مرتين، فيما أخذت أمه نفساً عميقاً وقبلته على جبينه، وشدته إليها لحظة واحدة ثم دفعته إلى الوراء وتراجعت خطوة وحذرته بصوت هامس مبحوح:

- أبوك سيذبحك.. أين كنت؟

قال بصوت ثابت، فيه رجاء، ولكنه قوي:

- أنا بعرضك..

وجاءه الصوت من ورائه في اللحظة التالية عصبياً عالياً:

- أين كنت يا كلب؟

ودون أن يلتفت، أبلغه الحقيقة:

- في صفد.

- في صفد؟ ماذا تفعل في صفد؟

- أخذت مرتينة خالي، وانضممت إلى الشباب، كانوا يقاتلون.

- ومن الذي طلب منك ذلك؟

- لا أحد، أنا الذي قررت.

وصاح أبوه:

- در على عقبيك وتحدث إلي وجهاً لوجه، أيها الولد العاق.

واستدار بهدوء وأخذ ينظر إليه، مباشرة في العينين الغاضبتين، وتقدم أبو قاسم خطوة، وكان واضحاً أنه لا بد من أن يستعمل كفه، وفي اللحظة التالية جاءته الصفعة التي ترقبها فلم يهتز، وحين اعترضت أمه الطريق بينه وبين أبيه أزاحها بهدوء من أمامه، وصاح أبو قاسم مرة أخرى:

- قل شيئاً.

وامتص منصور لعابه فأحس بطعمه الحلو وحرارته، إلا إنه لم يرفع يده ليرى ما إذا كان فمه قد بدأ ينزف، وعاد ينظر إلى أبيه في العينين مباشرة:

- إذا كنت أنت هنا، وقاسم في حيفا، فلا بد أن يذهب واحد ثالث إلى صفد.

- تريد أن تبيعني وطنية يا ابن العايبة؟

امتص لعابه مرة أخرى ونظر إلى أمه واقفة إزاءهما بتحفز، مستعدة لقذف نفسها بينهما إذا أعاد أبو قاسم الكرة.

- أنا لا أبيعك وطنية، لقد كنت في صفد.

وتردد أبو قاسم لحظة، فهذا نوع جديد من النزال لم يعتد عليه في السنوات الماضية، وحدق إلى ولده بغضب، ريثما يكتشف نقطته الأخرى ودون أن يترك مجالاً لأي تراجع.

- هل أعدت المرتينة إلى خالك؟

- صاغ وسليمة.

- ولماذا لم تخبرني؟

- كنت على عجلة.

وانتظرا، كديكين، لحظات أخرى، إلا إن الغضب كان بشكل ما قد تلاشى، وبقيت هناك مظاهره فقط.

- أخوك في حيفا غارق مع اليهوديات، انتزعته من هناك انتزاعاً، كلب آخر أكثر عقوقاً منك أيها الشقي.. ثم أنت..

وتوقف عن الكلام محيراً برهة أخرى وقاس ولده بعينيه:

- أغرب عن وجهي، إلى جهنم.

واستدار فيما ابتسم منصور، وهو ينظر إلى أمه، وصفق أبو قاسم باب الديوان بعنف، وقالت الأم بصوت خفيض:

- أنت شقي، على أي حال.

- أين الدكتور؟

- في القهوة، منذ أن جاء به أبوك من حيفا وهو يذهب إلى المقهى في كل صباح، سيكر عائداً بعد ساعة.

كان يحس في أعماقه بأنه غير راضٍ تماماً، رغم أن المشكلة مع أبيه قد انتهت بخير، وكان يعرف بأن عدم رضاه يتعلق بأخيه الدكتور قاسم، غارق مع اليهوديات! ليس من شيء يمكن للمرء أن يستبعده عن قاسم، عن الدكتور قاسم الذي أراد أن يهجر فلاحيته ويتمدين، فكسر الجرة، كما يقولون، غارق مع اليهوديات، يهوديات، يلبسن الملابس القصيرة ويكشفن أكتافهن، رآهن في الكرمل يلبسن السراويل الزرقاء القصيرة ويمشين بذلك الغطاء الذي لا يزيد حجمه عن حجم محرمة مطوية دون استحياء، الأرض نفسها لا تطيق النظر إليهن، لا عليك الآن.. أنت ما زلت تستحي من أخيك قاسم ولا تريد أن تقابله، بدل أن يستحي هو من فعلته تستحي أنت! أخوك الكبير، كتف يديك أمامه ولا تجاوب واحذر أن تجعل صوتك أعلى من

صوته رغم أنه يذهب مع اليهوديات.

وللحظة فكر أن يترك البيت مرة أخرى كي لا يقابل قاسم وجهاً لوجه، ولم يستطع أن يتصور لحظة واحدة كيف يستطيع أن يضع عينيه في وجهه.

ولكنه، على أي حال، لم يقابل قاسم ذلك اليوم، ليس في المساء ولا في اليوم التالي، وحين أرسله أبوه ليتقصى أخباره عند الظهيرة قال له القهوجي وهو يفرش ذراعه نحو الغرب:

- قال لي أن أبلغكم بأنه عاد إلى عيادته في حيفا.

◆ ◆ ◆

وحين عاد أبو الحسن إلى داره في نحف كان أول شيء شهده هو المرتينة القديمة متكئة في زاوية الديوان، اتجه إليها وحملها بشيء من الحنين، ولكنه لم يكن حنيناً صافياً تماماً: لقد فحصها بدقة، قلبها بين كفيه بادئ الأمر ثم سحب مقبض الإبرة المسكورة وأطلق الزناد مرتاحاً إلى الصوت الذي أصدره، وبعد ذلك فحص ماسورتها وذراعها، وشد حبل الليف كيما يتأكد أنه ما زال متيناً،

وعندما أنهى ذلك كله فقط ابتسم لنفسه برضا، وأعاد المرتينة إلى مكانها وتوجه إلى الباحة الخلفية حيث كانت أم الحسن تنشر غسيلاً ووقف يرقبها.

كانت قد شاخت قبل الأوان، ولكن عزيمتها لم تلن، وعنادها لم يعد أقل شأناً، إنها من ذلك النوع من النساء اللواتي يستطعن أن يفعلن كل ما يخطر على بالك، ولذلك فمن الصعب أن تصادفهن وهن نائمات أو جالسات ليلتقطن أنفاسهن، إنهن في الغالب يخلقن شيئاً يشغلن أنفسهن به إذا تعذر الشغل: أم الحسن تصحو قبله، تعد الفطور وتغلي الشاي ثم تخرج فتشتغل في رقعة الأرض الصغيرة الملحقة بالدار، وتعود فترتب البيت وتكنسه وتبدأ بطهو الغداء وتغسل وتزور جيرانها وتستمع إلى ما لا تعرف وتحكي ما تعرف، وتطرد الكلاب، وتنشر عصير البندورة، وتطعم الدجاجات، وتنزل بالبيض إلى الدكان، وتشتري ما تحتاجه ذلك اليوم، واذا ما رأيتها تقف في باحة الدار لحظة تنشف كفيها بمريولها المبرقش فاعلم أنها تفكر فيما يتوجب عليها أن تفعل، بعد ذلك، وقد تهتدي في تلك اللحظات إلى أفكار شيطانية: كأن تصب الطعام في صحون جديدة كي تعطي نفسها فرصة غسل الصحون القديمة، أو أن تخرج من الصندوق العتيق رداء تضيقه أو توسعه أو ترفو اهتراءه، أما إذا

عجزت عن إيجاد أي شيء تفعله فإنها تلجأ إلى المطبخ وتبدأ مرة أخرى في تجربة قدرتها على صنع الهريسة، إلا إنها طوال السنوات الماضية لم تستطع أن تنجح، لقد كان أبو الحسن يتناول اللقمة الأولى من هريستها فيغص، ويكشر دون أن يقول شيئاً فيما يبقي اللقمة بين فكيه وهو ينظر اليها غاضباً، ثم يقوم، وكانت هي تتذوقها بحرص، إلا إنها لم تكن لتعترف بفشلها إلا صبيحة اليوم التالي حين تنهض باكراً وتلقي بالهريسة إلى الدجاج، ورغم ذلك فإنها لم تكف عن محاولاتها هذه، وكانت تجد صعوبة بالغة في تجنبها.

قال لها أبو الحسن وهي ماضية في تعليق الغسيل على حبل من السلك:

- كان يجب أن تعلقي ذلك الولد من أذنيه حتى أصل وأجلده... ألم يقل لك لماذا تأخر؟

- كلا، لم يقل.

- على أي حال المدفع ما زال كما هو.

نشفت أم الحسن كفيها بمريولها ثم وضعتهما على خاصرتيها:

- كيف تعطي المرتينة لولد مثل منصور؟ لو مات لكان الذنب ذنبك.

- حين يموت الإنسان فليس ثمة وقت للتكلم عن الذنوب ثم إنه ليس صغيراً.

وحدجته من مكانها بنظرة قاسية. أحياناً يتخيل، حين تنظر إليه مؤنبة، أنها على وشك أن تقفز وتوسعه ضرباً وهو يحمد الله دائماً أنه لم يتح لها هذه الفرصة في العشرين سنة الماضية.

- اسمعي يا امرأة، أنا ذاهب الآن، إذا سأل عني أي إنسان قولي له إنني ذهبت إلى مجد الكروم، أو إلى عكا، أو إلى جهنم، فقط قولي لهم إنني لست هنا.

وعضت على شفتها السفلى، وكان هو يتوقع منها أن تفعل ذلك، فقد فعلته دائماً حين أرادت أن توجه سؤالاً تعرف أنه لن يجاب عليه، ودون أن يضيع الوقت استدار وذهب إلى الديوان من جديد. حمل مرتينته وانسل من الباب دون أن يغلقه، كانوا ينتظرونه وراء الدار. فلما وصل ساروا معه دون أن يقولوا شيئاً. وبخطواتهم التي تعرف مواطئها معرفة حميمة ضربوا في حقول الزيتون إلى الشرق دون لحظة تردد واحدة، كانوا يعرفون كل حجر تقريباً، وكل شجرة، ليس ذلك فحسب بل كانوا يعرفون تاريخ كل شجرة، ملك من كانت وملك من صارت، وكم تحمل وكم لا تحمل، وماذا سيكون مصيرها هذا الموسم وماذا كان مصيرها في الموسم الماضي صعوداً

وراء ساجور بعيد عنها بعض الشيء، تجنباً لملاقاة أي انسان، إلى ما وراء الرامة حيث انعطفوا في خط يشبه القوس نزلوا بعده وراء الصخور المطلة على المفرق.

كان المساء قد بدأ يهبط كئيباً قاتماً فيما ارتفع جدار من الوهج وراء التلال وفوحت رطوبة مفعمة برائحة تراب مبتل. من مكانهم كانوا يستطعيون بسهولة رؤية الطريق القادم من عكا يتفرع إلى طريقين، واحدة تذهب شمالاً إلى سحماتا والثانية تصعد شرقاً إلى فراضية وصفد. لقد اختاروا أكمة من صخر متراكم كمنوا وراءها وأصاخوا السمع. كانوا أربعة في عمر واحد تقريباً، لا يعرفونه بالضبط ولكنه لا يزيد كثيراً عن الأربعين، وكان واحد منهم فقط يبدو عجوزاً حقاً هو أبو العبد، ولذلك كان أبو الحسن يقول له كلما التقت نظراتهما: شد حيلك يا أبو العبد، وكان أبو العبد يبتسم ويهز رأسه دون أن يجيب، كأن الامر لا يحتاج إلى جواب.

بين الأربعة كانت المرتينة العتيقة تقف على كعبها بين كفي أبو الحسن كأنها عجوز خامسة، يتدلى حبل الليف من تحت فوهتها فتبدو مترهلة، ولكنها كانت أليفة ودافئة وتبعث على اطمئنان غامض، وقال أبو العبد:

– نرجو أن نتوفق قبل حلول العتمة.

وفكر أبو الحسن أن أبا العبد رجل عجوز حقاً، فهو يتصور أن العتمة خصم من نوع راعب، آه يا أيام زمان حين كان أبو العبد يغيب أسبوعاً في الجبال، يأكل خشباً وزعتراً ولا يعود إلا ومعه خمس قبعات إنكليزية على الأقل؟ آه يا أيام زمان حين كان الواحد يمشي من الصباح إلى المساء فلا تسمع لهاثه... كان ذلك منذ ١٢ سنة، ذلك عمر طويل ينهك الرجل الفقير ويذوب عظامه، آه يا أبو العبد يا مسكين، أتحسب أنك تستطيع أن تدخل في عراك الآن مثل أيام زمان؟ أتحسب أن الذين سيعاركونك هم أنفسهم الإنكليز الذين عاركتهم قبل ١٢ سنة؟ أتحسب أنهم شاخوا مثلما شخت أنت؟ آه يا مسكين يا أبو العبد لو تعرف أنهم يحضرون دائماً جيلاً جديداً ويرسلون الشيوخ إلى بيوتهم، نحن الذين شخنا فقط.. أما هم...

وجاء هدير مكتوم من بعيد، كهدير قطة، فأسقط أبو الحسن رصاصة في بيت النار وأركز ماسورة البندقية على حافة صخرة فيما عقد الرجال الثلاثة ذيول قنابيزهم تحت أحزمتهم وتحفزوا دون صوت، وكان الهدير يعلو شيئاً فشيئاً بينما أخذ الوهج المنتصب وراء التلال يغيم ويخيم على الأفق صمت جنائزي يوشك أن ينفجر.

- طوّل بالك.

قالها أبو العبد، فبدا صوته في ذلك الصمت قوياً وناشفاً، مثل

أيام زمان، فيما علا الهدير، وبعد لحظات مشدودة كالوتر ظهرت مقدمة السيارة قادمة من المنعطف، كانت تسير ببطء، وكان فيها رجلان يجلسان في المقعد الأمامي: صوّب أبو الحسن على السائق، وجاءه همس مبحوح من جواره:

- توكل يا أبو الحسن، على السوّاق.

وفي اللحظة التالية شد الزناد فقصف الرعد، واستدارت السيارة فجأة متدرجة نحو طرف الطريق واصطدمت بحجارة المرتفع، وقبل أن يحشو أبو الحسن رصاصة أخرى كان الرجال الثلاثة قد قفزوا فوق الحجارة وصاروا إلى جانب السيارة تماماً، لقد فعلوا ذلك بسرعة خارقة حتى إنه لم يدرِ ما يتعين عليه أن يفعل، إلا إنه حزم أمره وقفز هو الآخر ليلتحق بهم: كان السائق منكفئاً فوق المقود وكان الأخير يرتجف من الرعب، جروه من ياقته إلى خارج السيارة وانتزعوا مسدسه فيما ألصق أبو الحسن فوهة البندقية بظهره، لم يكن يعرف إلا شتيمة واحدة باللغة الإنكليزية (فاكن) فأخذ يرددها برتابة، بين لحظة وأخرى، وبأنغام مختلفة، محاولاً أن يعثر على النغمة الحقيقية التي يقولها بها الإنكليز أنفسهم، إلا إن ذلك كان عسيراً تماماً.

فتّشوا السيارة بدقة وبسرعة، كان ثمة بندقية إنكليزية جديدة

موضوعة إلى جانب السائق، وبضعة أمشاط من الفشك، وأمام المقعد الخلفي كان صندوق معدني مستطيل محكم الإغلاق لم يكن ثمة وقت لفحصه فحملوه معهم، وتولى أبو العبد محاولة إقناع الجندي بعدم اللحاق بهم، فاستعمل، في سبيل ذلك، يديه وحاجبيه ولغة عربية محطمة فأخذ الجندي يهز رأسه موافقاً. وكان الآخران قد حملا الصندوق الثقيل وأخذا يعدوان به في الأرض الوعرة المزروعة بالزيتون، فيما حشا أبو العبد البندقية الجديدة وصوبها إلى الجندي، معلناً بدء الانسحاب.

بعد أن سارا عشر دقائق توقف أبو العبد ووضع يده على كتف أبي الحسن:

- أتعرف؟ يجب أن نعود إلى ذلك الجندي فنضربه، لقد نسينا أن نفعل ذلك.

- ماذا؟

- لقد كنت كل عمري أشتهي أن أصفع جندياً إنكليزياً على وجهه، ورغم ذلك فقد نسيت أن أفعل.

آذار/مارس ١٩٦٥

الصغير وأبوه والمرتينة
يذهبون إلى قلعة جدّين

لم يجرؤ منصور على الذهاب إلى خاله مرة أخرى، ولكنه سمع أن أبا العبد يخبئ في بيته بندقية إنكليزية جديدة، فلما ذهب إليه قال له ابنه عبدالله إن والده ترك الدار ولن يعود قبل يومين، ودون أن يضيّع وقتاً صعد التلال إلى ترشيحا فوصلها قبيل الغروب، وكان الحاج عباس يجلس على كرسي صغير أمام الباب يلف سيجارة من تبغ خشن داكن كان يفرشه على حضنه، ولذلك لم يستطع أن يقف حين شهد منصور وابتدره ضاحكاً:

- عزيز من غير قيام.. خير إن شاء الله؟

قال منصور وهو يقعد قبالته:

- خير، كيف حال العم الحاج عباس؟

ونظر إليه الحاج عباس بعينيه الحادتين اللتين تشبهان عينيّ نسر عجوز، وكان وجهه الجعد محروقاً بالشمس وصارماً، لقد كان معروفاً في كل القرى المجاورة، ورغم ذلك فإن أحداً لم يكوّن فكرة

عنه، ولم يستطع اثنان أن يتفقا على رأي واحد حوله: فهو دنيء، وضيع وعلى استعداد ليبيع سرواله بقرشين، إذا كانت حساباته تكشف في مثل هذه الصفقة ربح تعريفة واحدة، هكذا يراه بعض الذين يعرفونه، أما البعض الآخر فيرى فيه رجلاً نبيلاً نظيفاً يعطيك لحم رقبته إذا كنت جائعاً.

ولكن الحاج عباس كان في الأساس يتاجر بالتبغ، وربما كانت هذه هي النقطة التي تجعل الناس يختلفون في النظر إليه، لقد كان محكوماً بأسعار السوق ولذلك فقد كانت عروضه على المزارعين تعلو وتهبط كلما علت الأسعار في حيفا وهبطت، وقد تعلم الحاج عباس درساً في الماضي حين أبلغته شركة قرمان، ذات يوم، بأن أسعار الشراء قد انخفضت بنسبة كبيرة، وكان قد تعاقد مع المزارعين وأعطى كلمته ولذلك انتهت به الخسارة في ذلك العام إلى ما يشبه الإفلاس، وبدءاً من ذلك اليوم بدأ يتعاقد مع المزارعين بصورة أخرى، فهو يحصل على وعد بأخذ المحصول إلا إنه لا يعطي وعداً بالسعر، ويترك الأمر معلقاً بصورة غامضة، وقد يشحن المحصول إلى حيفا قبل أن يدفع، وحين يجيء وقت الدفع تجيء المشاكل، ولكنه كان يستطيع دائماً أن ينهي الخلاف لصالحه.

وما لبثت الأمور أن ازدادت تعقيداً بالطبع، ووجد أنه، إذا ما

أراد أن يتابع بنجاح، فعليه أن يحيط نفسه بضمانات. وكانت هذه الفكرة بداية لتوسيع أعماله: فقد لجأ إلى إعطاء الديون والسلف، واستطاع أن يتوصل مع شركة «قرمان ديك وسلطي» إلى اتفاق يتيح له احتكار شراء المحصول في رقعة معينة من الجليل، تمتد في مسافة لا تقل عن خمسة كيلومترات مربعة حول ترشيحا، وحين أنهى ذلك كله تنفس الصعداء.

كان الحاج عباس سخياً في تقديم القروض لكل من يحتاجها، ولا يعرف أحد أنه ردّ محتاجاً دون أن يلبي طلبه، ولكنه لم يكن يتسامح في التحصيل، وكان الشرط في رأيه أخا الرضا، وكي يكون هذا الشرط واضحاً فقد كان يكتبه ويوقعه ويذيل في أسفله إمضاءات الشهود.

نصف المشاكل كانت تحلّها المحكمة، والنصف الآخر كان يحله بنفسه، ولكن مهما بلغ الخصام فقد كان الحاج عباس حريصاً على المحافظة على علاقاته الشخصية بالجميع، فهو يزورهم بتواصل، ولا يترك أحداً يزايد عليه في تنقيط العريس بالأفراح، يبارك بالمواليد الجدد، ويعزي بالموتى، ويقرأ الصحف لمن لا يستطيع أن يقرأ، ويذهب إلى عكا ليحضر الطبيب إذا تعسر على أي مريض إحضاره.

وكان ذواقة تبغ من الطراز الأول، يستمتع حتى الثمالة بلفافته

التي يرتبها بنفسه، وإذا أراد أن يذهب في الإكرام إلى مداه قدم إلى ضيوفه حفنات من التبغ الممتاز ليأخذوها معهم إلى بيوتهم.

لفّ سيجارته بإحكام. ثم قضم طرف الورقة وبللها بلسانه وألصقها وتأمل اللفافة لحظة وهي مبرومة بعناية في راحة يده الضخمة، وحين أشعلها أغمض عينيه نصف إغماضة، بنوع نادر من التلذذ، وابتلع الدخان ثم تركه يخرج كثيفاً من أنفه وفمه، وتأمله منصور بفضول مفكراً بطريقة يدخل فيها إلى قلب هذا الرجل المطوّق بالحرص والحذر كأنه ملفوف بالأسلاك الشائكة، إلا إن الحاج عباس يسّر له الأمر، كعادته إذا ما شعر بحرج طالب حاجة:

- يبدو أن مجد الكروم تحضر شيئاً، في الصباح جاء والدك، وها أنت ذا تجيء في المساء، أنا في الخدمة على أي حال، قال لي أبوك إنك ستتزوج عمّا قريب، أنت تعرف أنني على استعداد لأي خدمة... إذا لم نفرح مع الشباب، فما نفع حياتنا نحن العجائز؟

وضحك الحاج عباس كعادته كلما تحدث عن الشباب والشيوخ، فقد كان في أعماقه لا يصدق بأنه عجوز، وكان يكن نوعاً من الاستخفاف بشباب اليوم ويعتقد أنه إذا باطح أياً منهم قصفه شقفتين كما يقصف عرق التبغ الناشف، إلا إن منصور كان قد صدم، وغيّر كل ما في رأسه بغمضة عين، وأضحى كل ما يريده الآن هو

معرفة السبب الذي جاء بأبيه إلى الحاج عباس، فبدأ يطرح أسئلته بصورة مبتورة، كأنها أجوبة:

- لقد أراد أن يستدين مالاً.

- من؟

- أبي.

- كلا، لقد حسبت أنا نفسي أنه جاء ليستدين مالاً، أول الأمر، وأنت تعرف، لقد كنت حاضراً، أبو قاسم عزيز عليّ ولكنه لم يرد مالاً، كان يريد أن يستعير المرتينة.

- مرتينتك؟

- أجل، أنت تعرف، أنها عزيزة عليّ، ورغم ذلك فقد أعطيته إياها.

- بكم؟

وضحك الحاج عباس مرة أخرى، فأصدرت حنجرته غرغرة طفولية تضاءلت حتى ذابت، أسعده أن يكون منصور واقعياً ومتفهماً لحقيقة الأشياء. ومضى يشرح له بحماسة:

- لقد اتفقنا على كل شيء، وهو الذي وضع الشروط، وأنا قبلتها كما هي: يدفع جنيهاً عن كل يوم. كثير؟ كلا بالطبع فثمن المرتينة مئة جنيه، وقد كان راضياً وكنت أنا كذلك.

- وإذا ضاعت أو عطبت؟

- لا تقل لي إن والدك يملك مئة جنيه ليدفع ثمنها، ولكن قد يكون بمقدوره أن يدفع الثمن زيتوناً.

- وجعلته يوقع ورقة؟

هو الذي أراد ذلك، الرجال الشرفاء حريصون على حقوق الناس، وهم لا يقبلون الظلم، لقد قلت له إنه لا يوجد مكان للأوراق بين الحاج عباس وأبو قاسم إلا إنه أصرّ، ولم أشأ إغضابه.

ونظر في وجه منصور مباشرة وهو يمتص لفافته بتلك الشهية النادرة، وحاول منصور أن يبدو طبيعياً، إلا إنه شعر بأنه لم يستطع، وفي اللحظة التالية عرف أن الحاج عباس كشف حقيقة مشاعره، فقد نفخ دخانه واتكأ بكوعيه على ركبتيه وقال بصوت حاسم:

- إذا اعتقدت أن ذلك خطأ، أنت تعرف، فسأمزق الورقة أمامك الآن. أنا لم أشأ إغضاب العجوز فتركته يفعل ما يشاء، كل الذي أريده هو أن تعود بندقيتي ويعود هو..

- أين ذهب؟

- لست أدري، لست أدري، أنا لم أسأله، كما تعرف، وهو لم يقل.

وأخذ نفساً جديداً ثم عاد فاتكأ بظهره على الحائط، وعاد إلى

الموضوع الأول:

- تريد أن تتزوج؟

- أجل.

- ما الذي تريده مني يا عريس؟

ونظر إليه مرة أخرى محتاراً وكان يبدو مثل كومة من اللحم واللؤم فوق كرسيه الصغير، ووراءه كانت الشمس تغرب صابغة أطراف الغيوم الداكنة بلون دموي. نظر فوقه هنيهة، كانت كتل سوداء من السحاب تركض باتجاه بعضها، وفي اللحظة التالية قصف رعد ثقيل من بعيد وقال الحاج عباس:

- سوف تمطر... ما الذي تريده؟

نهض ونظر إليه من فوق:

- لا شيء، جئت أسألك عن أبي فقط، وكنت أعتقد أنني سأجده عندك فنعود معاً إلى مجد الكروم.

وقف الحاج عباس وحمل كرسيه فبدت أصغر مما هي في الحقيقة:

- سوف تمطر، هيا، نم هنا الليلة.

- شكراً، لديّ ما أفعله.

ودون توقف مضى يعدو عبر التلال الصخرية فيما بدأت الغيوم

تزخ بهدوء يشبه الهمس، ولأول مرة في حياته أحسّ بأن رأسه محشو بالطين، وأنه غير قادر على استخلاص أي شيء، هناك تعقيدات لا تصدق: بارودة مؤجرة، لماذا؟ وأبوه أيضاً! ما الذي أوقعه في براثن الحاج عباس، هذا الشخص المدبب كالدودة، لا تعرف رأسه من ذنبه، أيكون قد عرف؟ كلا! أبوه لا يتدخل بمثل هذه الأمور، ثم أنه شيخ عجوز كل ما يهمه هو الموسم الذي مضى والموسم الذي سيأتي، ولكن كيف؟

دون أن يهدأ، مثل عش الزنابير، كان رأسه يطن وهو يهرول على الدرب الضيق المحفور بالأقدام منذ بدء الخليقة، ولم يستطع أن يخفف من اندفاعاته وهو يدخل إلى الدار، كانت أمه نائمة إلا إنها استيقظت على وقع خطاه المستثارة وهو يحوّم في البيت كعاصفة صغيرة، وحين أطلت من الباب شهدته واقفاً أمامها، وأكبر مما بدا دائماً، غاضباً لاهثاً مبتلاً بالمطر:

- أين أبي؟

- قال إن هناك عرساً في عكا.

وقبل أن يقول شيئاً هدأ، على حين فجأة، وبدت له أمه امرأة مسكينة محطمة لا تعرف شيئاً ولا تحتاج إلا إلى حنان كبير تاقت إليه كل عمرها، تراها تعتقد حقاً أن زوجها ذهب إلى عكا؟ ويكذب

عليها أيضاً! ماذا لو أمسكها من كتفيها وهزّها كما تهز جرة الحليب، تراها تضحي شيئاً آخر؟ ما الفائدة؟

لبس قميصه الأبيض الطويل ومضى إلى فراشه، ولكن عينيه لم تغمضا حتى الصباح، وشهد من شباك الغرفة الواطئ شروقاً دامياً صارخاً، وما لبثت الشمس أن ضاعت وراء غيوم كثيفة السواد، وبهدوء انسلّ من فراشه ولبس ملابسه وغادر الدار تاركاً الباب مفتوحاً على مصراعيه.

وأمام المقهى كان شكيب يدخن لفافته وقد لبس حذاءه الجلدي الطويل، ورداءً كاكياً له جيوب كبيرة، وأسند بين ساقيه رشاشه القصير، وحين شهده قادماً نهض وسحق لفافته وحمل رشاشه من وسطه، كمن اعتاد أن يحمل الرشاش طويلاً، وسأل:

- أين سلاحك؟

- لم أجد شيئاً، كل الأبواب كانت مسدودة.

- لماذا تأتي إذن؟

- لست أدري، قد أتدبر أمري هناك.

وقاسه برهة بعينيه السوداوين القاسيتين ثم خطا أمامه دون كلمة. كان شكيب رجلاً غامضاً، صلباً كحائط من بازلت، يعرفه كل أهالي مجد الكروم والقرى المجاورة، ولكنهم لا يعرفونه أيضاً. لقد

استطاع شكيب أن يملك سلاحاً دائماً ولكن أحداً لم يعرف من أين كان يحصل عليه، حتى في أكثر أيام الإنكليز تعسفاً في ملاحقة الأسلحة كان بوسع شكيب أن يظل محتفظاً بمسدس أو بندقية أو رشاش، ومجد الكروم شهدته ذات يوم، قبل خمس سنوات، يحمل مدفعاً رشاشاً ضخماً من طراز فيكرز، ولما كان من الصعب إخفاؤه فقد فككه إلى قطع صغيرة دفنها خارج القرية، وحين عاد إليها بعد خمس سنوات كانت قد تآكلت، وتعذر عليه إعادة تركيبها فباعها إلى تجار الخردة.

وكان الإنكليز يقبضون عليه فوراً إذا ما نمي إليهم أن جندياً من جنودهم قتل في مكان ما من الجليل، ولذلك أضحى يعرف كل سجون فلسطين، ومعظم ضباط الجيش البريطاني. كان ولوعاً بالسلاح إلى حدود الجنون، ولذلك كان على استعداد ليقتل ضابطاً إنكليزياً خنقاً بأصابعه إذا كان يتيح له ذلك الحصول على مسدس. لقد سمي لفترة طويلة بالشقي، إلا إنه لم يكن شقياً في الحقيقة، كان مهذباً وخجولاً ويعتبر خدمة الآخرين واجباً من واجبات الرجل الحقيقي، وحين تزوج شهد أهالي مجد الكروم فيه زوجاً فاضلاً، حريصاً على تأمين حياة لائقة لزوجته وطفلته، وكان يختفي أياماً متواصلة دون أن يعرف أحداً أين كان يختفي، وحين كان يعود

كانت مجد الكروم تسمع أخباراً غامضة عن أمور خطيرة حدثت في مكان أو آخر من الجليل، إلا إن الجميع كانوا يلتزمون الصمت.

لم يتحدث شكيب كثيراً في حياته إلى أي إنسان، إلا إن كل رجال مجد الكروم يعرفون أنه حصل حتى على ملابسه التحتية من معسكرات الإنكليز، وأن لديه في مكان ما من بيته، أكثر من بزة عسكرية لضباط إنكليز من مختلف الرتب، وقد ألقي القبض عليه مرة وراء المحراث في حقله خارج مجد الكروم وهو يلبس بزة لضابط إنكليزي في رتبة مقدم.

كان يجيد إطلاق الرصاص إجادة لا تصدق، وقادراً على استعمال مختلف أنواع الأسلحة بحذق وإتقان، وكان معروفاً بصوته الجميل أيضاً، وقد غنى مراراً في أعراس مجد الكروم مواويل عميقة فيها حنين عميق للحب والأرض والسماء.

وبخطواته الثقيلة الواسعة كان يشقّ طريقاً سريعاً في الوعر، وكان منصور يلحقه بصعوبة دون أن يدري إذا كان مقبولاً، وقبل أن يكتمل الصبح كانا قد صارا في مشارف جدّين، ومن المرتفعات المحيطة بها شاهداها قلعة صلبة قائمة فوق مرتفع مسطح تحيط بها أكواخ خشبية داخل نطاق من أسلاك شائكة كثيفة.

جلس شكيب موسعاً بين ساقيه، كأنهما قطعتا حطب ضخمتان،

مشيراً بفوهة الرشاش الدقيقة نحو القلعة، كان يبدو مرتاحاً ومطمئناً وغير مكترث بأيما شيء، كما كان يبدو في الصباح وهو جالس في باحة مجد الكروم، وقال لمنصور بصوته الهادئ الحنون، الذي لا يبدو مطلقاً صوت مثل هذا الرجل:

- لست أفهم كثيراً في التاريخ، ولكن هذه القلعة قديمة جداً، وعلى أي حال فنحن لسنا هنا لدراستها، بل لاحتلالها.

ونظر إلى منصور مرة أخرى، كأنه لم ينظر إليه قبل الآن، وابتسم:

- رغم أنك لا تحمل سلاحاً!.. ولكن لا تهتم كثيراً، الآن حين يجتمع الرجال سنرى، غالباً ما يكتشف بعضهم في آخر لحظة أنهم مرضى، وبالوسع استعمال سلاحهم.

وحدق منصور برهة إلى القلعة، فبدت له منيعة ومتراصة كأنها جبل بلا مغاور، وبدا له أن فكرة احتلالها هي ضرب من المزاح.

- قد نكون نحن الوحيدين من تلك المنطقة، الرجال جميعاً قدموا من ترشيحا ويركا والكابري، وربما يكون الشيشكلي أيضاً قد جاء ببعض رجاله... ولكن المهم ليس هنا، المهم أن هذه القلعة محشوة بالأسلحة، واذا ما تيسر لك دخولها فستحتار ماذا يتوجب عليك أن تحمل معك... وهكذا فإن مجيئك لم يكن عبثاً، بوسعك أن تنصرف إلى الدعاء أثناء القتال، واذا ما استجابت السماء دعاءك

حصلت على سلاح.

وابتسم بإيجاز، لنفسه، ثم نهض وبدأ ينزل المنحدر بأقدام صلبة ثابتة، وكان الرجال ينتظرون في منتصف الطريق بين جدّين وعمقا، وكان مدفعا مورتر جاهزين في المقدمة، وبدت البنادق عتيقة ولكنها صالحة، وحين وصلا كان أول ما شهده منصور وجه أبيه.

كان جالساً فوق التراب في نهاية الحلقة معتمداً كفيه فوق البندقية، بندقية الحاج عباس بلا شك، يستمع بإمعان إلى ملاحظات الرجل الملتحي، المطوق بأحزمة الرصاص، والمنتصف في الوسط يشرح مستعيناً بكفيه، خطة موجزة.

لقد كان يتوقع ذلك، كان متأكداً منه في أعماقه، ورغم ذلك فقد واصل استبعاده بنوع من التكذيب على نفسه لأنه لم يكن يريده، كان على يقين من أنه سيجد والده جالساً هنا، بانتظار القتال، ولكنه تمسك طوال ساعات ممضة بالأمل الضئيل في أن لا يجده، وقد حدثت الخطوة التالية ببساطة: رفع أبوه بصره عن الأرض وشهده واقفاً في طرف الحلقة الآخر إلى جانب شكيب، إلا إن وجهه ظل جامداً كأنه ينظر إلى إنسان لا يعرفه، وحين انتهى الرجل الملتحي من الشرح قام أبو قاسم فاتجه إلى ولده ووقف بجانبه دون أن ينظر إليه، وفقط حين بدأ المسير، قال له بصوت هامس:

- كان يجب أن لا تأتي، ليس من الحكمة ترك أمك وحدها.

- هذا ما كنت أريد أن أقوله لك، لماذا لا تعطيني بندقيتك وتعود إلى مجد الكروم؟

مدّ أبو قاسم البندقية أمام وجه منصور فبدت في الصباح براقة، كأنها خرجت لتوها من المصنع:

- ليست بندقيتي، بندقية الحاج عباس، دفعت أجرتها، ورهنتها زيتوناً، ولذلك لن أسلمها لأي إنسان، لأي كفين غير هاتين الكفين.

تريث منصور هنيهة، ثم سأل بصوت حاسم:

- ولماذا تشترك في الهجوم على جدين؟

-لقد بدأت الثورة، هذا هو كل شيء.

- كلا، أنت تريد الحصول على مرتينة من جدين، تعطيها لي ليلة العرس، كما وعدتني.

ولكن أبو قاسم لم يجب، أطبق شفتيه وغذ الخطى فسبقه ملتحقاً بالرجال الذين كانوا في المقدمة، وحين التفت حوله شهد شكيباً يدندن لنفسه لحناً، ثم أمسكه من ذراعه فأحس بقوة كفه وصلابتها:

- اسمع يا منصور، هذا الجيل جيل لعين، يجب أن تعرف ذلك منذ البدء، رؤوسهم مثل الصخر، فلا تضيّع وقتك في محاولات

لإقناعهم، ليس بالوسع الضحك عليهم، أبوك وأبي وكل ذلك الجيل اللعين لا يمكن التعامل معه إلا بالخداع... أتعرف ماذا يتعين عليك أن تفعل الآن؟ حاول أن تحميه فقط.

- أتعتقد حقاً أننا نستطيع احتلال القلعة؟

- لست أعتقد ذلك في الحقيقة، ولكن الهجوم سيظل مفيداً ومن يدري، فقد تحدث المعجزة.

كانت البيوت الخشبية الواطئة تحوط القلعة من كل جانب، وحولها التفت أسلاك شائكة كثيفة، لقد رابطت فرقة من الرجال على الطريق لقطع نجدات قد تأتي من نهاريا، فيما توزع الرجال على المنحدر بالانتظار.

ومن بعيد شهد منصور شكيباً يزحف نحو الأسلاك، لقد كان يتعين ربطها بالحبال وهزّها عن بعد كي تنفجر الألغام المثبتة فيها، إلا إن الرصاص انهمر قبل أن يصل شكيب إلى الأسلاك، وفي اللحظات التالية التهبت الهضبة بالشرار، ولم يستطع منصور أن يلحق بأبيه، فقد كان الرجال جميعاً يتنقلون بسرعة من مكمن إلى آخر، ولم يكن بالوسع مشاهدة أكثر من كوفياتهم تتماوج كأعلام بيضاء صغيرة بين الصخور وأشجار الشوك، وكان الرصاص ينهمر حول شكيب بصورة أعجزته عن الحركة إلا إنه قبع بالانتظار مطبقاً

كفيه فوق رزمة الحبال فيما كان يعلوه سقف من نار غزيرة لا تنقطع. وفي اللحظة التالية خيّل لمنصور أن الموقف يمكن أن يستمر على هذه الصورة إلى الأبد، إن الطرفين يطلقان الرصاص على متاريس من فولاذ وصخر، دون أن يعرفا شيئاً عن بعضهما، لو كان فقط يعرف طبيعة جدين لاستطاع أن يتصور طريقة أو أخرى. وفقط حين بدأت قنابل المورتر تنسف البيوت الخشبية واحداً بعد الآخر تضاءلت أصوات الرصاص، وتحرك شكيب خطوة واحدة، ثم أنشأ يزحف كأفعى قصيرة فيما تفجّرت قنابل المورتر هنا وهناك مسكتة مدفعاً وراء الآخر، وحين وصل شكيب إلى الأسلاك كانت أصوات الرصاص المنبعثة من الأكواخ الخشبية قد صمتت تماماً، وقد يسّر له ذلك أن يعقد الحبال بإحكام وأن ينسل بخفة، وفي اللحظات التالية بدأت الأسلاك تهتز بعنف وهي تسحب بالحبال وتفجر الألغام دفعة واحدة مصدرة صوتاً هائلاً قاذفة بعواصف من رمل وصخر إلى علو شاهق، وصمتت أصوات البنادق والرشاشات ومدفعية المورتر دفعة واحدة، كأنها بالانتظار.

حين انجلى الدخان بدت الأكواخ الخشبية عاجزة وكسيحة ومفتوحة تماماً أمام الرجال الكامنين في الهضبة، فانزلق منصور من المؤخرة والتحق بالصف الأمامي، لقد مرت دقائق طويلة من

الصمت والترقب، ثم شرع الرجال بالزحف، ببطء وحذر بادئ الأمر، ثم انتصب رجل وآخر وأنشآ يركضان حاملين بندقيتيهما فوق رأسيهما نحو الأكواخ المهجورة، وكأن ذلك كان إيذاناً ببدء المرحلة الأخرى من الهجوم، فغادر الرجال مكامنهم ومضوا ينزلقون فوق الهضبة مصدرين هديراً مكتوماً، وفقط حين وصلوا إلى الأسلاك الممزقة انفتحت عليهم النار من شبابيك القلعة المنيعة فالتصقوا بالأرض من جديد.

وطوال ساعة كان من المستحيل التقدم خطوة واحدة، كانت النار غزيرة ومتصلة ولم يكن من المتيسر معرفة مصدرها بدقة، لقد شرعت قنابل المورتر تتساقط من جديد حول القلعة المتماسكة، ثم ما لبثت أن صمتت، وقال منصور لنفسه: «لقد نفد عتاد المورتر»، وكان ما يزال ملتصقاً بالصخرة حين جاءه شكيب زاحفاً، وكان يبدو مغبراً ومتعباً وممزقاً، جلس إلى جانبه واحتضن رشاشه وأخذ يهز رأسه:

- أتدري؟ لم أطلق مشطاً واحداً، كيف نطلق؟

ونظر إلى رشاشه كأنه يلومه، ثم لكز منصوراً بكوعه:

- هيا بنا، لقد انتهى كل شيء، وعما قريب سيصل الإنكليز فيطوقوننا.

وسأل منصور مذهولاً:

- ماذا حدث؟

- لا شيء طبعاً.. لقد كان من السهل تدمير أكواخ الخشب ونسف الأسلاك الشائكة، ولا شك أنهم كانوا يعرفون ذلك فحفروا خنادق عميقة بين تلك الأكواخ والقلعة، وحين بدأ المورتر بدأ الانسحاب، وكانوا يترصدوننا من القلعة. إننا لم نفعل شيئاً، وبوسع القلعة الصمود إلى يومين، ولكن هل تضمن لي عدم حضور الإنكليز؟

- لقد خسرنا إذن...

- انتهى كل شيء، هيا بنا، لقد كانت غزوة عشائرية لا تعرف رأسها من ذنبها، ولكن سنتعلم.

- وأبي؟

- دعه يتدبر أمره بنفسه، إن ذلك يريحه أكثر، ليس من واجبك إشعاره بأنك وصي عليه.

بدأ صوت الرصاص يتضاءل شيئاً فشيئاً، إلا من طلقات عنيدة كانت تعلن عن نفسها بين الفينة والأخرى. استدار منصور وبدأ يتسلق الهضبة إلى جانب شكيب فيما كان الرجال ينسحبون واحداً بعد الآخر وهم يطلقون ما تبقى من عتادهم، وحين وصل منصور إلى الطريق جلس بالانتظار فيما مضى شكيب إلى سبيله دون أن

يتبادلا كلمة وداع واحدة. كان يستشعر مرارة جارحة في حلقه، ولم يستطع قط أن يتخلص من الشعور الذي لازمه منذ الصباح بأنه نسي شيئاً. لقد كان من المضحك حقاً أن يذهب إلى المعركة دون سلاح، كأنه ذاهب إلى عرس، حتى العرس يتوجب على المرء أن يذهب إليه مسلحاً، أي نوع من القتال هو هذا القتال؟ تحارب صخراً بكفيك، تناطح جداراً برأسك العاري! أليس من العار أن يظل بلا سلاح؟ إن الرجال يحصلون على سلاحهم بالقوة، لا يطلبون إذناً ولا يذهبون تارة إلى نحف وتارة إلى كسرة ليستجدوا البندقية استجداء.

رأسمال المرتينة لحظة شجاعة واحدة، ربما جرح من الحربة المثبتة فوقها أيضاً، ولكن من قال إن السماء تمطر بنادق كما أمطرت منّاً وسلوى؟ لقد استطاع شكيب في السنوات العشر الماضية أن يسطو على مئة قطعة سلاح على الأقل، لم يطلب إذناً من أحد، فماذا تراك تنتظر يا سيد منصور، أن تعثر على مرتينة أو رشاش أمام باب دارك ذات صباح؟ إنها الثورة! هكذا يقولون جميعاً، وأنت لا تستطيع أن تعرف معنى ذلك إلا إذا كنت تعلق على كتفك بندقية تستطيع أن تطلق. فإلى متى تنتظر؟

وامتلأت السماء فجأة بدوي راعد، وأخذت أصوات الرجال ترتفع من سفح الهضبة، وبين الغيوم الكثيفة كان بالوسع مشاهدة

طائرة تلتمع كطبق مستطيل من الفضة، دارت الطائرة دورتين واسعتين فوق الهضبة والقلعة ثم حلقت عالياً من جديد، وقبل أن يشهدها مرة أخرى بدأت القنابل تنفجر فوق سطح الهضبة مثل شريط من الشجر الأسود، وإلى الشمال كانت المصفحات تطل بأنوفها من فوق طريق الكابري وتبصق نارها على الهضبة.. وجاءه صوت رجل مذعور يصيح من أسفل الوادي:

- جاء الإنكليز يا شباب!

ورفرفت الكوفيات البيضاء تفتش عن مكامن، واحتجبت الشمس خلف غيوم داكنة السواد وبدأت السماء تزخ زخاً خفيفاً، لقد احتار الرجال هنيهة، ثم بدأوا يتسلقون الهضبة متجهين إلى الجنوب، لقد كان واضحاً أن طريق نهاريا الكابري في الشمال محكوم بالمصفحات الإنكليزية التي جاءت لنجدة جدين، ولذلك فإن الطريق المفتوح الوحيد كان إلى الجنوب، حيث يتعين عليك تسلق الطريق الضيق إلى جت. وكانت المدافع تطلق نيرانها على السفح المنتصب للهضبة عبر الوادي.

وكأن المصفحات نفخت نفساً في قلعة جدين فعادت نوافذها تطلق نيرانها الغزيرة فيما بدأت طلائع الرجال تمرّ بمنصور في طريقها نحو الجنوب، لقد انتظر، بأنفاس لاهثة، وصول أبيه إلا إنه

لم يستطع الركون إلى ذلك الانتظار الراجف العاجز، فبدأ ينزل متصلباً حذراً وحين بلغ نطاق النار استوقفه الرجل الملتحي وهو يحمل رشاشه المدبب ويلتحف بأحزمة الأمشاط، كان ملطخاً بالوحل وكان وجهه يتمسح بالسواد، أمسكه من ذراعه ودفعه إلى الوراء بعنف وهو يصيح:

- إلى أين أيها المجنون؟

نفض منصور يده بضراوة، وقبل أن يصحو الرجل من وقع الحركة كان منصور قد أمسك ذراع الرشاش بكلتا يديه وأخذ يجذبه إليه بعنف:

- إذا كنت خائفاً فأعطني سلاحك.. إن أبي ما يزال هناك.

إلا إن الرجل تمسك برشاشه، وبهدوء قام بحركة سريعة، لم يستطع منصور أن يلحظها أو يلاحقها، فانتزع الرشاش مفقداً منصور توازنه، وصوبه إلى صدره مكشراً وجهه الملطخ بالسواد عن ابتسامة ضارية:

- لنبحث عنه معاً، إنه من مجد الكروم أليس كذلك؟

هز منصور رأسه موافقاً فيما حمل الرجل رشاشه وانزلق في المقدمة ضارباً حذاءه الضخم، بإحكام وصلابة، في بحيرات الوحل الصغيرة، لقد تستر ببراعة وراء ركام الصخر، وكانت القنابل قد

بدأت تتفجر وراءهما متعقبة الانسحاب خطوة خطوة، وحين دوى صوت رعد وحشي التفت الرجل إلى منصور، وكان من المتعذر التعرف بدقة على ملامحه المصطبغة بالوحل والدخان:

- إنه عجوز صعب بلا شك، لقد كانت خطوطنا الأمامية هنا، ومعنى ذلك أنه تقدم عليها.. هل أنت متأكد أنه لم ينسحب؟

- كلا.

قالها، وبدأ قلبه ينتفض بعنف، كديك مذبوح، مستشعراً خطراً عاصفاً يحدق به. ابتلع ريقه بصعوبة، وأكمل وهو ينظر إلى الأرض:

- كلا، كلا، لم ينسحب، لقد كنت على رأس الطريق.. ولو انسحب لتعين عليه أن يمر بي.

مسح الرجل جبهته بكمه وسأل:

- أتريد أن تتقدم أكثر؟

- نعم.

وفكر الرجل هنيهة ثم ناوله الرشاش:

- حاول أن تحميني، سأذهب بنفسي وسأعود إليك هنا.. لا تتحرك خطوة واحدة..

كان فولاذ الرشاش مبتلاً فأحس برعشة تسري في ذراعيه حين تلقفه، وأنشأ ينظر إليه وهو يغتسل بماء المطر فيبدو أكثر ضراوة،

لقد فقدت أصوات الرصاص الغزيرة معناها الآن وأضحت جزءاً من الرعود والبروق والغيوم الداكنة التي تمد فوق رأسه سقفاً واطئاً من الظلام. ضم الرشاش إلى صدره وأغمض عينيه متنهداً، برهة واحدة، ثم عاد فمد الفوهة أمامه وثنى إصبعه حول الزناد وأخذ يحدق مضيقاً عينيه إلى الصخور، وأشجار الشوك تستحم في ماء المطر الغزير.

ومر الزمن ثقيلاً بـارداً ينتزع خطواته من بحيرات الوحل العميقة، مكبلاً مربوطاً إلى الجبل، غاضباً ولكن عاجزاً أيضاً، يدق أسنانه فوق بعضها فيرجع صداها في صدره المهتز كالنابض من فولاذ ووحل ورعب.

كان منصور ممتلئاً بالتوقع، ينبض معه، إلى حد بدا له أن ما يتوقعه سيحدث لا محالة، ولا يمكن الفرار منه، وحين شهد الرجل الملتحي من بعيد شبحاً كثيفاً محنياً يحمل فوق كتفيه شبحاً كثيفاً آخر، تلقى المشهد بهدوء، كأنه رآه قبل ذلك بساعات طويلة واعتاد عليه.

لقد مكث في مكانه، راكعاً على ركبة واحدة يغتسل بالمطر يحدق إلى أبيه محمولاً على كتفي الرجل، وحين اقتربا منه شهد كف أبيه تطبق بإحكام على البندقية من وسطها ويلتف حزامها

حول ساعده، وكان الدم يصبغ الرجلين معاً، ويتسرب في ثنيات رداءيهما كأنه هو الآخر يحتمي من المطر، وحين وصلا قربه تماماً قال الرجل الملتحي:

- هيا، سوف أحصل على بغل إذا ما وصلنا إلى الطريق، ومن هناك تأخذ أباك إلى جت ثم إلى مجد الكروم.. امش ورائي وراقب الطريق خلفنا، لقد تركوا القلعة وينوون اللحاق بنا، على ما أعتقد.

ودون أن يلفظ حرفاً واحداً سار وراء الرجل بهدوء، فيما تمزقت الغيوم وتسربت أشعة الشمس رقعاً صغيرة في المدى وراءهم، لقد بدت الهضبة مهجورة وموحشة، وتوقفت المدافع عن الإطلاق، إلا إن أصوات الطلقات كانت ما تزال تنهمر من مختلف الجهات دون وعي، وحين وصلا إلى الطريق أنزل الرجل أبا قاسم عن كتفيه وأسند ظهره إلى جذع شجرة كثيفة، كانت ذراع العجوز ملتصقة ببطنه. وفيما كانت كفه الأخرى تتمسك بإصرار عند البندقية، مد منصور الرشاش نحو الرجل، وقال بصوت مبحوح:

- لا أريد أن أنظر إليه... قل لي، هل هي إصابة خطرة؟

- يبدو أنها رصاصة في أحشائه، إذا لم ينزف كل دمه على الطريق فقد يستطيع الطبيب إنقاذه... هل تعرف طبيباً؟ على أي حال، سأذهب الآن وأحضر بغلاً، وعليك أن تصل بسرعة إلى مجد

الكروم... لقد سألتك، هل تعرف طبيباً؟

نظر منصور إلى والده مطوياً تحت جذع الشجرة، ينزف الدم من بين أصابع كفه الموحلة وهي تضغط على أحشائه، كانت عيناه مغمضتين، وبدت كفه المطبقة على البندقية كفاً ميتة متخشبة.

- هل تعرف طبيباً؟

- طبيب؟ إن أخي قاسم طبيب، قاسم، أجل.. ولكنه..

- ماذا تنتظر إذن؟ أعني أحضر بغلاً لهذا العجوز الصعب.

بدأ الأنين خفيضاً ممزعاً، ثم أخذ يعلو، لقد أشرقت الشمس تماماً الآن وماتت كل الأصوات، فاتخذ الأنين في ذلك الصمت المطبق وقعاً فاجعاً فيما كان الدم يتسرب من بين الأصابع المتشنجة بنزيز يكاد يُسمع. وفي ذلك الخلاء المبتل كان منصور يقف عاجزاً وهو يرى أن أبيه يموت رويداً رويداً دون حركة واحدة، إلا ذلك النبض العميق الذي كان يرجفه فتبدو عروقه كأسلاك مشدودة تخرج من كفه وتتوزع في بدن البندقية أيضاً، وأخيراً انتفضوا جميعاً معاً: الشجرة والرجل والمرتينة، ومن وراء غبش المطر الغاضب، ودموعه، خيل لمنصور أنهم ليسوا، معاً، سوى جثة هامدة.

نيسان/أبريل ١٩٦٥

الصغير يذهب إلى المخيّم

كان ذلك زمن الحرب. الحرب؟ كلا، الاشتباك ذاته.. الالتحام المتواصل بالعدو لأنه أثناء الحرب قد تهب نسمة سلام يلتقط فيها المقاتل أنفاسه. راحة. هدنة. إجازة تقهقر. أما في الاشتباك فإنك دائماً على بعد طلقة. أنت دائماً تمرّ بأعجوبة بين طلقتين، وهذا ما كان، كما قلت لك، زمن الاشتباك المستمر.

كنت أسكن مع سبعة أخوة كلهم ذكور شديدو المراس، وأب لا يحبّ زوجته ربما لأنها أنجبت له زمن الاشتباك ثمانية أطفال. وكانت عمتنا وزوجها وأولادها الخمسة يسكنون معنا أيضاً، وجدنا العجوز الذي كان إذا ما عثر على خمسة قروش على الطاولة أو في جيب أحد السراويل الكثيرة المعلقة مضى دون تردد واشترى جريدة، ولم يكن يعرف، كما تعلم، القراءة، وهكذا كان مضطراً للاعتراف دائماً بما اقترف كي يقرأ أحدنا على مسمعيه الثقيلين آخر الأخبار.

في ذلك الزمن - دعني أولاً أقُل لك إنه لم يكن زمن اشتباك بالمعنى الذي يخيل إليك، كلا لم تكن ثمة حرب حقيقية. لم تكن ثمة أي حرب على الإطلاق. كل ما في الأمر أننا كنا ثمانية عشر شخصاً في بيت واحد من جميع الأجيال التي يمكن أن تتوفر في وقت واحد. لم يكن أي واحد منا قد نجح بعد في الحصول على عمل، وكان الجوع - الذي تسمع عنه - همنا اليومي. ذلك أسميه زمن الاشتباك. أنت تعلم. لا فرق على الإطلاق. كنا نقاتل من أجل الأكل، ثم نتقاتل لنوزعه فيما بيننا، ثم نتقاتل بعد ذلك، ثم في أية لحظة سكون يخرج جدي جريدته المطوية باعتناء من بين ملابسه ناظراً إلى الجميع بعينيه الصغيرتين المتحفزتين، معنى ذلك أن خمسة قروش قد سرقت من جيب ما - إذا كان فيه هناك خمسة قروش - أو من مكان ما. وأن شجاراً سيقع. ويظل جدى متمسكاً بالجريدة وهو يتصدى للأصوات بسكون الشيخ الذي عاش وقتاً كافياً للاستماع إلى كل أنواع الضجيج والشجار دون أن يرى فيها ما يستحق الجواب أو الاهتمام.. وحين تهدأ الأصوات يميل أقرب الصبيان إليه (ذلك أنه لم يكن يثق بالبنات) ويدفع له الصحيفة وهو يمسك بطرفها، كي لا تخطف.

وكنت مع عصام في العاشرة - كان أضخم مني قليلاً كما هو

الآن.. وكان يعتبر نفسه زعيم أخوته أبناء عمتي - كما كنت أعتبر نفسي زعيم أخوتي.. وبعد محاولات عديدة استطاع والدي وزوج عمتي أن يجدا لنا مهنة يومية: نحمل السلة الكبيرة معاً ونسير حوالي ساعة وربع، حتى نصل إلى سوق الخضار بعد العصر بقليل. في ذلك الوقت أنت لا تعرف كيف يكون سوق الخضار: تكون الدكاكين قد بدأت بإغلاق أبوابها وآخر الشاحنات التي تعبأ بما تبقى، تستعد لمغادرة ذلك الشارع المزحوم. وكانت مهمتنا - عصام وأنا - هينة وصعبة في آن واحد. فقد كان يتعين علينا أن نجد ما نعبئ به سلتنا: أمام الدكاكين. وراء السيارات. وفوق المفارش أيضاً إذا كان المعنيّ في قيلولة أو داخل حانوته.

أقول لك إنه كان زمن الاشتباك: أنت لا تعرف كيف يمر المقاتل بين طلقتين طوال نهاره. كان عصام يندفع كالسهم ليخطف رأس ملفوف ممزّق أو حزمة بصل، وربما تفاحة من بين عجلات الشاحنة وهي تتأهب للتحرك. وكنت أنا بدوري أتصدى للشياطين - أي بقية الأطفال - إذا ما حاولوا تناول برتقالة شاهدتها في الوحل قبلهم. وكنا نعمل طوال العصر: نتشاجر عصام وأنا من جهة، مع بقية الأطفال أو أصحاب الدكاكين أو السائقين أو رجال الشرطة أحياناً، ثم أتشاجر مع عصام فيما تبقى من الوقت.

كان ذلك زمن الاشتباك. أقول هذا لأنك لا تعرف: إن العالم وقتئذ يقف على رأسه، لا أحد يطالبه بالفضيلة... سيبدو مضحكاً من يفعل... أن تعيش كيفما كان وبأية وسيلة هو انتصار مرموق للفضيلة. حسناً. حين يموت المرء تموت الفضيلة أيضاً، أليس كذلك؟ إذن دعنا نتفق بأنه في زمن الاشتباك يكون من مهمتك أن تحقق الفضيلة الأولى، أي أن تحتفظ بنفسك حياً. وفيما عدا ذلك يأتي ثانياً. ولأنك في اشتباك مستمر فإنه لا يوجد «ثانياً». أنت دائماً لا تنتهي من «أولاً».

وكان يتعين علينا أن نحمل السلّة معاً حين تمتلئ ونمضي عائدين إلى البيت: ذلك كان طعامنا جميعاً لليوم التالي.. بالطبع كنا أنا وعصام متفقين على أن نأكل أجود ما في السلة على الطريق. ذلك اتفاق لم نناقشه أبداً، لم نعلن عنه أبداً. ولكنه كان يحدث وحده. ذلك أننا كنا معاً في زمن الاشتباك.

وكان الشتاء شديد القسوة ذلك العام الملعون، وكنا نحمل سلة ثقيلة حقاً (هذا شيء لا أنساه، كأنك وقعت أثناء المعركة في خندق فإذا به يحوي سريراً) وكنت آكل تفاحة، فقد كنا خرجنا من بوابة السوق وسرنا في الشارع الرئيسي. قطعنا ما يقرب من مسير عشر دقائق بين الناس والسيارات والحافلات وواجهات الدكاكين دون أن

نتبادل كلمة (لأن السلة كانت ثقيلة حقاً وكنا نحن الاثنين منصرفين تماماً إلى الأكل) وفجأة..

لا. هذا شيء لا يوصف. لا يمكن وصفه: كأنك على نصل سكين من عدوك وأنت دون سلاح وإذا بك في اللحظة ذاتها تجلس في حضن أمك..

دعني أقُل لك ما حدث: كنا نحمل السلة كما قلت لك، وكان شرطي يقف في منتصف الطريق، وكان الشارع مبتلاً، وكنا تقريباً دون أحذية. ربما كنت أنظر إلى حذاء الشرطي الثقيل والسميك حين شهدتها فجأة هناك، كان طرفها تحت حذائه، أي كنت بعيداً حوالي ستة أمتار ولكنني عرفت، ربما من لونها، أنها أكثر من ليرة واحدة.

نحن في مثل هذه الحالات لا نفكر. يتحدثون عن الغريزة. طيب. أنا لا أعرف ما إذا كان لون الأوراق المالية شيئاً له علاقة بالغريزة. له علاقة بتلك القوة الوحشية، المجرمة، القادرة على الخنق في لحظة، الموجودة في أعماق كل منا. ولكن ما أعرفه هو أن المرء في زمن الاشتباك لا ينبغي له أن يفكر حين يرى ورقة مالية تحت حذاء الشرطي وهو يحمل سلة من الخضار الفاسد على بعد ستة أمتار. وهذا ما فعلته: ألقيت ببقايا التفاحة وتركت السلة في

اللحظة ذاتها. ولا شك أن عصام تمايل فجأة تحت ثقل السلة التي تركت في يده ولكن كان قد شاهدها بعدي بلحظة واحدة. إلا إنني بالطبع كنت قد اندفعت تحت وطأة تلك القوة المجهولة التي تجبر وحيد القرن على هجوم أعمى، غايته آخر الأرض، ونطحت ساقي الشرطي بكتفي فتراجع مذعوراً. وكان توازني أنا الآخر قد اختل. ولكنني لم أقع على الأرض - وفي تلك اللحظة التي يحسب فيها الأغبياء أن لا شيء يمكن له أن يحدث - شاهدتها: كانت خمس ليرات. لم أشاهدها فحسب بل التقطتها واستكملت سقوطي. إلا إنني وقفت بأسرع مما سقطت وبدأت أركض بأسرع مما وقفت.

ومضى العالم بأجمعه يركض ورائي: صفارة الشرطي، وصوت حذائه يقرع بلاط الشارع ورائـي تماماً. صراخ عصام، أجراس الحافلات. نداء الناس.. هل كانوا حقاً ورائي؟ ليس بوسعك أن تقول وليس بوسعي أيضاً. لقد عدوت متأكداً حتى صميمي أن لا أحد في كل الكواكب السيارة يستطيع أن يمسكني. وبعقل طفل العشر سنوات سلكت طريقاً آخر. ربما لأنني حسبت أن عصام سيدل الشرطي على طريقي. لست أدري. لم ألتفت. كنت أركض ولا أذكر أنني تعبت.. كنت جندياً هرب من ميدان حرب أجبر على خوضها وليس أمامه إلا أن يظل يعدو والعالم وراء كعبي حذائه.

ووصلت إلى البيت بعد الغروب، وحين فتح لي الباب شهدت ما كنت أشعر في أعماقي أنني سأشهده: كان السبعة عشر مخلوقاً في البيت ينتظرونني. وقد درسوني بسرعة، ولكن بدقة، حين وقفت في حلق الباب أبادلهم النظر: كفي مطبقة على الخمس ليرات في جيبي، وقدماي ثابتتان في الأرض.

كان عصام يقف بين أمه وأبيه، وكان غاضباً. لا شك أن شجاراً قد وقع بين العائلتين قبل مقدمي. واستنجدت بجدي الذي كان جالساً في الركن ملتحفاً بعباءته البنية النظيفة ينظر إلي بإعجاب: رجلاً كان حكيماً. رجلاً حقيقياً يعرف كيف ينبغي له أن ينظر إلى الدنيا. وكان كل ما يريده من الخمس ليرات: جريدة كبيرة هذه المرة.

وانتظرت الشجار بفارغ الصبر. كان عصام بالطبع قد كذب: قال لهم أنه هو الذي وجد الخمس ليرات وإنني أخذتها منه بالقوة. ليس ذلك فقط، بل أجبرته على حمل السلة الثقيلة وحده طوال المسافة المنهكة: ألم أقل لك أنه زمن الاشتباك؟ لم يكن أي واحد منا مهتماً بمناقشة عصام، بصدقه أو بكذبه، فذلك شيء لا يمكن أن يكون له أي قيمة. لم يكذب عصام فقط بل كان متأكداً من أن أحداً لم يهتم بالحقيقة. ليس ذلك فقط بل أنه ارتضى أن يذل نفسه

ويعلن ربما للمرة الأولى أنني ضربته وأنني أقوى منه.. ولكن ما قيمة ذلك كله أمام المسألة الحقيقية الأولى.

كان أبوه يفكر بشيء آخر تماماً: كان مستعداً لقبول نصف المبلغ، وكان أبي يريد النصف الآخر، لأنني لو نجحت في الاحتفاظ بالمبلغ كله لصار من حقي وحدي، أما إذا تخليت عن هذا الحق فسأفقد كل شيء وسيتقاسمون المبلغ.

ولكنهم لم يكونوا يعرفون حقاً معنى أن يكون الطفل ممسكاً بخمس ليرات في جيبه زمن الاشتباك.. وقد قلت لهم جميعاً بلهجة حملت لأول مرة في حياتي طابع التهديد بترك البيت وإلى الأبد: إن الخمس ليرات لي وحدي.

وأنت تعرف لا شك: جن جنونهم، ضاع رابط الدم فوقفوا جميعاً ضدي. لقد أنذروني أولاً. ولكنني كنت مستعداً لما هو أكثر من ذلك ثم بدأوا يضربونني. وكان بوسعي بالطبع أن أدافع عن نفسي، ولكن لأنني أردت أن أحتفظ بكفي داخل جيبي مطبقة على الخمس ليرات فقد كان من العسير حقاً أن أتجنب الضربات المحكمة. وقد تفرج جدي على المعركة باستثارة بادئ الأمر، ثم لما بدأت المعركة تفقد طرافتها قام فوقف أمامهم، وبذلك يسر لي أن ألتصق به. اقترح تسوية. قال إن الكبار لا حق لهم بالمبلغ. ولكن

من واجبي أن آخذ كل أطفال البيت ذات يوم صحو إلى حيث نصرف جميعاً مبلغ الخمس ليرات كما نشاء.

عندها تقدمت إلى الأمام معتزماً الرفض، إلا إنني في اللحظة ذاتها شهدت في عينيه ما أمسكني. لم أفهم بالضبط آنذاك ما كان في عينيه، ولكنني شعرت فقط أنه كان يكذب وأنه كان يرجوني أن أصمت.

أنت تعرف أن طفل العشر سنوات - زمن الاشتباك - لا يستطيع أن يفهم الأمور (إذا كان ثمة حاجة لفهمها) كما يستطيع عجوز مثل جدي. ولكن هذا هو ما حصل. كان يريد جريدته ربما كل يوم لمدة أسبوع - وكان يهمه أن يرضيني بأي ثمن.

وهكذا اتفقنا ذلك المساء. ولكنني كنت أعرف أن مهمتي لم تنته. فعلي أن أحمي الليرات الخمس كل لحظات الليل والنهار. ثم علي أن أماطل بقية الأطفال، وعلي أيضاً أن أواجه محاولات إقناع وتغرير لن تكف عنها أمي. قالت لي ذلك المساء إن الليرات الخمس تشتري رطلين من اللحم، أو قميصاً جديداً لي، أو دواء حين تقتضي الحاجة، أو كتاباً إذا ما فكروا بإرسالي إلى مدرسة مجانية في الصيف القادم.. ولكن ما نفع الكلام؟ كأنها كانت تطلب مني وأنا أعبر بين طلقتين أن أنظف حذائي.

ولم أكن أعرف بالضبط ماذا كنت أنوي أن أفعل. ولكنني طوال الأسبوع الذي جاء بعد ذلك نجحت في مماطلة الأطفال، بآلاف من الكذبات التي كانوا يعرفون أنها كذلك ولكنهم لم يقولوا إطلاقاً إنها أكاذيب. لم تكن الفضيلة هنا. أنت تعلم. كانت مسألة أخرى تدور حول الفضيلة الوحيدة آنذاك: الخمس ليرات.

ولكن جدي كان يفهم الأمور، وكان يريد جريدته ثمناً معادلاً لدوره في القصة، وحين مضى الأسبوع بدأ يتململ. لقد شعر (من المؤكد أنه شعر، ذلك لأن رجلاً عجوزاً مثله لا يمكن أن تفوته تلك الحقيقة) أنني لن أشتري له الجريدة، وأنه فقد فرصته، ولكنه لم يكن يمتلك أية وسيلة لاستردادها.

وحين مرت عشرة أيام أخرى اعتقد الجميع أنني صرفت الليرات الخمس، وأن يدي في جيبي تقبض على فراغ. على خديعة. ولكن جدي كان يعرف أن الليرات الخمس ما تزال في جيبي. وفي الواقع قام ذات ليلة بمحاولة لسحبها من جيبي وأنا مستغرق في النوم (كنت أنام بملابسي)، إلاّ إنني صحوت فتراجع إلى فراشه ونام دونما كلمة.

قلت لك إنه زمن الاشتباك. كان جدي حزيناً لأنه لم يحصل على جريدة، وليس لأنني نكثت بوعد لم يتفق عليه. كان يفهم زمن

الاشتباك، ولذلك لم يلمني طوال السنتين اللتين عاشهما بعد ذلك على ما فعلته. وقد نسي عصام القصة أيضاً. كان في أعماقه - كطفل صعب المراس - يفهم تماماً ما حدث. واصلنا رحلاتنا اليومية إلى سوق الخضار، كنا نتشاجر أقل من أي وقت مضى ونتحادث قليلاً. يبدو أن شيئاً ما - جداراً مجهولاً ارتفع فجأة بيننا - هو الذي ما زال في الاشتباك - وأنا الذي تنفست - ليس يدري كم - هواء آخر.

وأذكر أنني احتفظت بالخمس ليرات في جيبي طوال الخمسة أسابيع: كنت أعد خروجاً لائقاً بها في زمن الاشتباك. إلا إن كل شيء حين يقترب من التنفيذ كان يبدو وكأنه جسر للعودة إلى زمن الاشتباك وليس للخروج منه.

كيف تستطيع أن تفهم ذلك؟ كان بقاء الليرات الخمس معي شيئاً يفوق استعمالها. كانت تبدو في جيبي وكأنها مفتاح أمتلكه في راحتي وأستطيع في أية لحظة أن أفتح باب الخروج وأمضي. ولكن حين كنت أقترب من القفل كنت أشم وراء الباب زمن اشتباك آخر. أبعد مدى. كأنه عودة إلى بداية الطريق من جديد.

وما بقي ليس مهماً: ذات يوم مضيت مع عصام إلى السوق وقد اندفعت لأخطف حزمة من السلق كانت أمام عجلات شاحنة تتحرك ببطء. وفي اللحظة الأخيرة زلقت وسقطت تحت الشاحنة. كان

حظي جيداً فلم تمر العجلات فوق ساقي، إنما توقفت بالضبط بعد ملامستها. وعلى أية حال صحوت من إغمائي في المستشفى. وكان أول ما فعلته - كما لا شك تخمن - أن تفقدت الخمس ليرات. إلا إنها لم تكن هناك.

أعتقد أن عصام هو الذي أخذها حين حملوه معي في السيارة إلى المستشفى. ولكنه لم يقل وأنا لم أسأل. كنا نتبادل النظر فقط ونفهم. لا، لم أكن غاضباً لأنه كان ملهياً وأنا أنزف دمي بأخذ الليرات الخمس. كنت حزيناً فقط لأنني فقدتها.

وأنت لن تفهم. ذلك كان في زمن الاشتباك.

آذار/مارس ١٩٦٧

الصغير يكتشف أن
المفتاح يشبه الفأس

إنه يشبه فأساً صغيرة، ولو لم تكن مؤخرته متوجة بحلقة لحسبت أنه نموذج مصغر لفأس حقيقية، ولست أذكر الآن من الذي صنعه ولا فيما إذا كان قد قصد ذلك قصداً، ولكنه أحياناً كان يبدو أليفاً ومعتاداً إلى حد تغيب عنه صورة الفأس ولا يتبقى، ثمة، إلا المفتاح.

في البدء كنت أحسب أنني وحدي الذي أرى فيه شكلاً لفأس صغيرة، وكنت في تلك الفترة أرى أموراً كثيرة على غير ما هي في الحقيقة، وبيني وبين نفسي كنت أحسب أنني أعاني من مرض خطير يجعل الأشياء تبدو لي مختلفة عمّا تبدو فيه للآخرين، وفي مرتين أو ثلاث مرات عجزت عن إقناع شقيقي بأن الغيمة التي كانت تبدو لنا معاً تكاد تكون أسداً، وكان يقول لي: إنها غيمة فقط، ولم أكن لأستطيع أن أقنعه، إذ إن الغيمة كانت سرعان ما تتفتت وتصير شيئاً آخر.

ولكن ذلك، على أي حال، لم يكن يحدث بما يختص بالمفتاح، والواقع أنني لم أقل لأحد إنه يشبه الفأس الصغيرة، وحدث ذات يوم أن فوجئت بأن هذه الحقيقة كانت شائعة أكثر مما اعتقدت. فحين شكوت لأبي أنني لم أعد أستطيع مواصلة التحطيب معه بسبب ثقل الفأس، وقف ونظر إلي مستغرباً، ثم أخرج المفتاح من حزامه وقال لي ساخراً: «لعلك تحتاج لمثل هذه الفأس؟» ونظرت إلى المفتاح مدهوشاً، أكاد ابتسم، إلا إن أبي نهرني بتلك الشتيمة التي كان يضعها في مكان ما بين الغضب والاستسلام «روح... غوارة تاخدك».

كان مفتاحاً كبير الحجم له لون بني كامد ميال إلى الحمرة، إلا إن رأسه كان لماعاً ويتخذ شكل نصل الفأس العريض في نهايته والضيق في رأسه المربوط إلى الوتد، ولم يكن أبي نفسه يعرف من الذي صنعه، فقد كان، كما يقول، يشاهده مع أبيه منذ كان طفلاً، وكان يقول أن أباه أيضاً كان يراه كما لو كان فأساً صغيرة مسختها قوة ما إلى مفتاح.

والذي لا شك فيه أن شكل المفتاح كان يثير السخرية أحياناً عند أولئك الذين كانوا يرونه لأول مرة، وكنا في البيت نتوقع أن يقول لنا مضيف، حين يرى المفتاح، شيئاً طريفاً، وكانوا في الغالب

يقولون: أهذه هي فأسكم؟ وكان أبي يجيب ببرود جواباً تعلمه بدوره عن أبيه: «كلا، هذا مفتاحنا، فأسنا في الإسطبل، هل تحب أن تراها؟» وكنا نحن، الأولاد، نضحك كل مرة بصخب شديد كأننا لم نسمع ذلك الجواب من قبل. وكان ذلك يسر أبي تماماً.

بالنسبة لنا كان المفتاح مجموعة فضائل دخلت حياتنا ببطء ولكن بثبات، فهو المفتاح الوحيد الذي لم يستطع الزمن أن يضيعه، لقد كان كل رجل في القرية، كل طفل، كل امرأة، يعرفون أن هذا المفتاح هو مفتاح دار جابر، بل كان ثمة أناس في القرى المجاورة يعرفون ذلك أيضاً، فإذا ما ضاع أو سقط يعود إلى الدار كأنما من تلقاء نفسه... وكان المفتاح، أيضاً، يستعمل لعدة أغراض لأن شفرته كانت حادة، وكانت مؤخرته الثقيلة تستعمل كمطرقة صغيرة، وأذكر أن أمي قالت لإحدى نسيباتها إن حماتها قشرت بشفرته ذات يوم بصلة حين ضيعت سكينها، وإن عمها ظل طيلة أيام يشم رائحة البصل تحوم حوله دون أن يعرف من أين تنبعث.

◆◆◆

أعتقد أنني نسيت المفتاح حين ذهبت لأدرس في القدس وغبت عن كل أشياء القرية غياب الشاب الذي أخذ يكتشف عالماً جديداً، ولكن العالم الذي اكتشفته فيما بعد كان هو ذاته العالم الذي تركته. كيف أشرح ما حدث لي؟ إنه يبدو معقداً بمقدار ما هو بسيط.. لقد عشت في القدس ثلاث سنوات متواصلة، رأيت والدي فيها مرات عديدة ولكن قصيرة، كان يأتي إلى القدس ويجلس في غرفتي الصغيرة وكنت أرى المفتاح في حزامه، وعند ذاك فقط كانت القرية كلها تنبعث في رأسي كنسمة ريح غامضة، ولكن فيما عدا ذلك كان المفتاح يغيب حين يغيب والدي، وكنت أعتقد أنني آخذ في اكتشاف عالم لا مفاتيح له، عالم جديد ومثير بلا حدود، إلا إن ذلك، كما ظهر لي فيما بعد، كان مجرد وهم، فقد عدت من الكلية ذات يوم فقالت لي السيدة صاحبة الغرفة إن رجلاً اسمه يحيى سأل عني وسيعود في الليل، وسألتها من أين جاء فقالت إنه جاء من القرية، وعند ذاك فقط تذكرت يحيى هذا: إنه شاب ضئيل شديد السمرة كان مشهوراً فيما بيننا بأنه صامت ولكنه يخفي تحت صمته خبثاً لا حد له، وأمي كانت تقول إنه «حيّة تحت التبن»، فما الذي جاء به الآن إلى القدس؟

- قال أنه جاء بشأن مفتاح.

- مفتاح؟

وفجأة ارتد العالم كله ووقف أمامي دفعة واحدة، ربما كانت تلك هي المرة الأولى في حياتي التي أسمع فيها كلمة مفتاح مجردة من الـ «ال». كان دائماً «المفتاح» فما الذي جعله الآن «مفتاحاً» فقط؟ لقد بدا لي الأمر معقداً وإلى حد ما ينذر بالشر، وانتظرت يحيى إلى أن أتى في الليل، فسلم علي ببرود وجلس وأخذت أنظر إليه بريبة، وبعد قليل أخذ صوته ينهمر بذلك البرود الذي يتسلح به رسول النبأ التعيس:

- البقية بحياتك.

- من؟

- والدك.

واستل المفتاح من حزامه ووضعه وسط الدوامة التي كانت تعصف برأسي، كأنه وتد أستعين به على التوقف في ذلك الدوران المفجع، ووقف:

- مات شريفاً وشجاعاً كما عاش. لولاه لاحتلوا..

وسكت، تاركاً لي إكمال رسم الصورة التي أشاء لرجل لم يعد بوسعي أن أراه بعد، وإلى الأبد، ودفع المفتاح أكثر نحوي:

- أخذت العجوز الأولاد إلى عكا. تقول لك: هذا هو المفتاح،

ستجد زيتاً وطحيناً في الغرفة الخلفية، وهناك تنكة زيتون تحت سدة الفراش، وملابسك في مكانها، أما الحصان فقد وضعوه عند المختار.

وفتحت راحة يدي فوضع الفأس فيها، وذهب.

وعدت إلى القرية حين أُبلغت أنها معرضة لهجوم، وقد تسقط بين لحظة وأخرى، وكان يتعين علي أن أترك الباص قبل القرية بمسافة طويلة لتعذر وصوله إلى هناك، ولما كنت أعرف المنطقة تماماً فقد أخذت أضرب في «الشول»، وبعد قليل تخلصت من حقيبتي، كان أيار ذاك حاراً على غير عادته، وحين خلعت معطفي تذكرت أن أستل المفتاح من جيبه خوف أن يسقط، وأذكر أنني حين دخلت القرية بعد ثلاث ساعات من السير لم أكن أحمل إلا المفتاح.

وكنت أعرف أن الهدوء الكامل في القرية يخفي تحته تربصاً مستثاراً، وأخذت أسير قرب الجدران كقطة طريدة، وقريباً من البيت قفز يحيى أمامي وهو يحمل بندقيته وجرني وراء جدار ودون أن يسلم سألني:

- لقد تأخرت. أين المفتاح؟

ولم يتركني لأنتشي بهذه الـ «ال» الدافئة تعود إلى مفتاح بيتنا،

فطيلة الأسابيع الماضية كان رفاقي في القدس، حين يرونه على الطاولة، يقولون: هذا مفتاح، وكان ذلك يغيظني ولكن دون أن يدفعني إلى الكلام، أما يحيى فقد جعل الأمر طبيعياً ودافئاً من جديد، وأخذ يكرر:

- أين المفتاح؟

ولم ينتظر، فقد رآه في يدي وسحبه ولوح برأسه أن أتبعه وحين كنا نصعد التلة قال لي: «إن موقع بيتكم ممتاز، ثم إنني أذكر أن أمك تركت لنا فيه تنكة زيتون وطحيناً.»

فجأة تكور العالم حولي من جديد. أمك تركت لنا. أحسست بدفء افتقدته طيلة سنوات وبلغ بي اعتيادي على فقدانه حداً جعلني أقبله ولكن تلك اللحظة كانت لحظة أخيرة. وقف يحيى فجأة ووضع المفتاح في يدي من جديد، وذكرني وجهه باليوم الذي جاء فيه إلى القدس ليقول لي «البقية بحياتك»، ولكنه لم يقل شيئاً، ونزلنا التلة معاً صامتين: هو يحمل بندقيته وأنا أطوي رأسي على الفأس.

قطعة حديد؟ هكذا كان يراها كثيرون. يبدو أن شقيقتي لم تجد مكاناً تضعه فيه فدقت له مسمارين وعلقته نائماً على الحائط فوق الراديو مباشرة. كان مفتاحاً ضخماً وجميلاً وغريباً بعض الشيء، ولكنه بالنسبة لضيوفنا كان مجرد مفتاح ضخم وجميل وغريب. كان

المسمار الأول يدخل في حلقته والثاني يقع تحت رأسه. مرت فوقه رياح عشرين سنة وراكمت عليه غبارها وصدأها. ولكنه ظل هناك. كان جزءاً من حائطنا الجديد، وأذكر أن شقيقتي انتزعته مرة لتنفض عنه الغبار فبدت الغرفة فوراً مبتورة وباردة ومهجورة، وقد اتفقنا، أنا وشقيقتي، على هذه الحقيقة بمجرد تبادل النظر.

يوماً بعد يوم صار مفتاحنا مفتاحاً فقط، بالنسبة للكثيرين، وربما أحياناً بالنسبة لي أنا أيضاً، هل أقول إننا نسيناه؟ لا، بالطبع ولكنه لم يعد يذكرني بالفأس. أحياناً كنت أجلس وأنظر إليه ملياً وأتساءل: كيف كنت أراه، ذات يوم، فأساً صغيرة؟ كيف كان جدي يعتقد أنها فأس مسختها قوة جبارة إلى مفتاح؟ وكان ابني حسان قد ولد فرآه هناك وأغلب الظن أنه كان يراه مثل صورة معلقة على الجدار. وكنت أنتظر ذات يوم أن يقول لي إنه يشبه الفأس، مثلما انتظر والدي مني أن أفعل، ولكن ذلك لم يخطر على باله كما يبدو، وكنت أقول لنفسي: ما النفع؟ ما الذي أريده؟

لقد مر عشرون أيار. إن ذلك لا يعني شيئاً. كان أيار يذكرني بشيء ما ولكنه كان شيئاً غامضاً مثل كابوس، وكنت أقول لنفسي: إن الزمن نهر متصل وأيار هو جزء من ذلك الزمن. إنه لا يعني شيئاً على التحديد. إن منتصف أيار، مثله مثل منتصف أي شهر آخر، مثل

أي يوم آخر من أيام السنة، بل من أيام السنوات العشرين التي مرت، لا يعني شيئاً على التحديد. لقد كان جسراً ليوم آخر ولا يمكن لأي جسر أن يكون إن لم يكن طرفاه مربوطين إلى شيء هنا وشيء هناك.. ولكن المفتاح كان شيئاً آخر، كان شيئاً خاصاً لم يستطع بالنسبة لي أبداً ان يكون مجرد مفتاح، صحيح أنه فقد تلك الـ «ال» الدافئة على ألسنة أصدقائي وزواري إلا إنه، لي ولشقيقتي، لم يفقدها وكنا نلفظ تلك الـ «ال» بالتشديد فتصدر صوتاً كأنه اصطفاق باب.

سأقول لكم الآن ما الذي حدث، الذي حدث للمفتاح ولمنتصف أيار معاً. إن ذلك يبدو وكأنه صدفة لا يفهمها عقل بشري، ولكنها صدفة - بالنسبة لي - كانت ممكنة تماماً، وحين حدثت قلت لنفسي: كيف لم أتوقع أن تحدث طيلة الوقت الذي مضى؟

لقد جاءت شقيقتي ذلك الصباح وفتحت الراديو، كان حسان جالساً يتناول فطوره في الغرفة، ويبدو أن شقيقتي لم تضبط الصوت فدوى الصوت فجأة عالياً كالرعد، وأخذ يهز الغرفة الصغيرة هزاً، كنت منصرفاً بكليتي للسماع حين سقط أحد المسمارين من تحت المفتاح فسقط جسد المفتاح وأخذ ينوس جيئة وذهاباً على المسمار المثبت في حلقته، وتلاقت أنظارنا، شقيقتي وأنا، فيما

شعرت برجفة منعتني من الكلام، ويبدو أنها أحست بالرجفة ذاتها فيما مضى المفتاح ينوس مصدراً حفيفاً كأنه الريح، صاح حسان مشيراً بإصبعه إلى المفتاح:

- انظر، إنه يشبه الفأس!

أيار/مايو ١٩٦٧

صديق سلمان يتعلّم أشياء كثيرة في ليلة واحدة[1]

مثل محجر نُزعت منه العين كانت فوهة البندقية القصيرة مصوبة إلى وجهه تماماً، وبدا الرجل الذي يحملها كمن يلبس بذلة ليست له، مشمراً عن ساعدين يكسوهما زغب أشقر، ويضع فوق رأسه خوذة مفكوكة الحزام. لم يكن خائفاً تماماً، فقد ملأه شعور عميق بأنه بريء وبأنه لن يقتل ولكنه لم يكن ليستطيع تركيز ذهنه على شيء واحد.

وحين تحركت الفوهة، كأنها أصبع تشير إلى الاتجاه، مشى ببطء، وهنا جاءته الفكرة الأولى: لقد تعلم ذلك من السينما، إذ كيف يستطيع أن يفهم بأن حركة البندقية، على تلك الصورة التي لا تكاد ترى، أمر بالمشي؟ بل كيف يتوقع الجندي منه أن يفهم لو لم يكن واثقاً أنه تعلم ذلك من السينما؟

وحاول بعد ذلك أن يتذكر فيلماً معيناً رأى فيه هذا المشهد

---

1. نشرت هذه القصة بعنوان «الفدائي».

بالذات، ولكنه صرف النظر عن المحاولة بشيء من الغضب، كان يعرف أن عليه الآن التفكير بشيء آخر، وبدا ذلك مستحيلاً كأن رأسه ربطت داخل جاذبية تلك الفوهة الفولاذية، وحين خرج من الباب أضاف إلى فكرته تفصيلاً جديداً: إن الجندي نفسه يبدو وكأنه ممثل سينمائي، وقال لنفسه: لقد تعلم ذلك من السينما.

وراودته رغبة بالالتفات إلى الوراء لينظر إلى الجندي مرة أخرى، ولكنه لم يجرؤ على ذلك، وحاول أن يجمع في رأسه صورته كما رآه لأول مرة قبل عشرين دقيقة تقريباً، ونجح في ذلك إلى حد ما متأكداً من جديد أنه صورة عن ممثل سينمائي وقال لنفسه: كأنه خارج ليتصور، جاهزاً لأن تكون صورته مؤثرة إلى أبعد مدى بالمشاهدين.

وكان يؤلمه أن لا يكون بوسعه الخروج من هذا الإطار الذي لا لزوم له والذي يطوق أفكاره بإحكام، كانت خطواته رتيبة، وخال أن ذلك هو السبب الذي يحول دون خروجه عن رتابة أفكار ليست مناسبة لحالته، فوقف.

ولكن شيئاً لم يحدث، لقد صمتت أصوات الخطوات على الحصى وراءه دفعة واحدة، وساد سكون عميق ينبض بتوقعات لا حصر لها، وفي هذه الهوة من الفراغ تذكر صمتاً مماثلاً: قال له

الضابط الذي كان يدربه: اقذفها! ففك زناد القنبلة اليدوية وعد ببطء إلى ثلاثة ثم طوحها فوق رأسه إلى أبعد مدى تستطيعه ذراعه، وشاهد القنبلة تخبط الأرض على بعد، وتقفز بثقل ثلاث مرات، ثم تقف. وانتظر هنيهة محني الظهر وذراعه مفروشة إلى الأمام كأنه تمثال إغريقي، ولكن القنبلة ظلت هناك صامتة كأنها حجر، مرعبة كأنها الموت، وقال له الضابط: لم تنفجر، فقال مكرراً: لا، لم تنفجر. وظل واقفاً، لا يعرف ما يفعل، وبعد لحظة سمع الضابط يقول بهدوء: اذهب وهاتها. فالتفت، محاولاً أن يبتسم نصف ابتسامة، إلا إن الضابط ظل متجهماً، وقال مرة أخرى: اذهب وهاتها، قلت لك اذهب. وفكر: قد تنفجر. ثم نقل خطواته مكانها حائراً ولكنه لم يتقدم، وأخيراً قرر أن يقول: لن أذهب، فقد تنفجر بين يدي. وتنفس الصعداء كأنه أزاح عن صدره هماً، ولكن الضابط صاح بصوت راعد: اذهب وهاتها، أقول لك، هذا أمر. تحرك. وفجأة صمت كل الضجيج حوله، وتقاطر الرجال الذين أنهكهم التدريب وأحاطوا به صامتين، ونظر إليهم مغتسلين بالغبار الفضي، يلهثون بأصوات مكتومة، وكانت القنبلة على بعد جيل من الحماقة، مرمية هناك كأنها خارج اللعبة. وتحت سياط النظرات قرر ألا يتراجع، وقال: لا، لن أذهب، هذا جنون. وارتفعت ضجة صغيرة حوله، ثم

هرج الحصى تحت أقدام الضابط الذي ارتد خطوتين إلى الوراء، وفجأة حدث ما لم يكن يحسب حسابه، صوب الضابط فوهة بندقيته نحو وجهه، مباشرة، وأمره بصوت بارد: أقول لك اذهب وهاتها، ثم انفتحت هوة سحيقة من الصمت تنبض فيها توقعات لا حصر لها.

◆ ◆ ◆

وامتد الصمت إلى أطول مما توقع، ولكن شيئاً لم يحدث، وكانت عضلات ظهره تنتفض مشدودة إلى أقصاها وهو يتوقع أن تدفعه فوهة البندقية إلى الأمام، ولكن شيئاً لم يحدث، وما لبث، خلال زمن لم يعد يستطيع أن يحسبه كما ينبغي أن ارتد إلى جاذبية فولاذ البندقية التي كان يحسها وراءه تماماً، وقال لنفسه: كما يحدث في السينما. ثم قال مرة أخرى: إنه يشبه ممثلاً ما، مستعداً لعرض مأجور أمام آلة تصوير موضوعة في مكان خفي. وبذل جهداً كي يقفز من دائـرة أفكاره التي كان يحس كم كانت خارجة عن الموضوع، وقال لنفسه: الجندي ورائي، ووراءه أخي رياض، بلا شك، ثم أمي، وهناك رتل طويل من الأشخاص لا بد أن يكون مؤلفاً من

الجيران جميعاً، وبينهم يقف الجنود وكل واحد منهم يضع أصبعه على الزناد. هل يضع الجميع أذرعتهم فوق رؤوسهم كما أفعل أنا؟ لا شك. سيبدو رياض مضحكاً بعض الشيء فذراعاه قصيرتان جداً، وسيحسب الإسرائيليون إنه لا يرفعهما كما ينبغي، أما الأم؟

وعندها فقط اندفعت فوهة البندقية في ظهره فسار خطوتين رغماً عنه، وسقطت صورة أمه من رأسه وتحطمت وتناثرت قطعها وشظاياها، وحين حاول أن يقف مرة أخرى دفعته الفوهة من جديد، فأخذ يسير محاولاً ألا يفكر.

ولكن ذلك كان مستحيلاً، فقد انفجرت في رأسه فكرة جديدة: ما دمت لا أستطيع الوقوف فلماذا لا أسرع؟ ذلك أيضاً سيكون مزعجاً للجندي. ولكنه اطرح الفكرة وقال: لو أسرعت لأطلق النار. وما لبث أن استنتج شيئاً هاماً: إنه يضحي أكثر أماناً كلما اقترب من البندقية، وأكثر عرضة للموت كلما ابتعد عنها.

وأعجبته الفكرة فابتسم لنفسه، وقال: إنها مبدأ عسكري جديد وممتاز ويشرح أموراً عديدة وخيل إليه - ولكن بصورة غامضة - أن الفكرة أخطر شأناً مما تبدو في ظاهرها البسيط، بل أوسع وأعمق مما يحسب هو نفسه، واعترف بينه وبين ذاته: ولكنها جاءت ببطء شديد.

◆ ◆ ◆

«ببطء شديد». كان الضابط ما زال يصوب نحوه فوهة بندقيته وطلب منه ارتكاب تلك الحماقة القاتلة والتقاط القنبلة التي لم تنفجر، ولكنه لم يتحرك، وبقي واقفاً وسط مطر من النظرات المترقبة يسوطها رفاقه المكسوون بالغبار الفضي، منذ جاء إلى هذه الدورة التدريبية وهم يحذرونه من هذا الضابط الذي لا يعرف الرحمة. إنه مستعد للقتل. لم يكن ضابطاً ولكنهم كانوا يسمونه كذلك. كان مدرباً فقط. والآن ماذا سيفعل.

وفجأة تقدم رفيقه سلمان، وقال للضابط: أتسمح أن أحل المشكلة عنه؟ فهز الضابط رأسه موافقاً ومتخلصاً من مأزق كان يبدو قبل لحظة مسدوداً تماماً، فتقدم سلمان إلى الأمام، وصوب بندقيته نحو القنبلة ففجرها في بركان صغير من الحصى والغبار والدخان، والتفت الضابط إليه غاضباً: تفكر ببطء شديد، لا تصلح لتكون فدائياً، فهمت؟ لا تصلح. وأخذ سلمان ينظف بندقيته منصرفاً عن تسبيب إحراج أكثر، وقفل هو عائداً إلى الخيمة التي كانت

الشمس تشويها في فرن خرافي من الغبار، وحين جلس هناك أحس كأنه يبكي.

* * *

- اجلسوا هنا.

وجلس واضعاً كفيه فوق رأسه، وجلست أمه إلى جواره، ووراءهما جلس رياض وبقية الرجال. كان هناك رجال ونساء وأطفال ما زال النوم يثقل أجفانهم، وأخذوا يسيرون من أمامه، مترنحين وأيديهم الصغيرة مرفوعة بارتخاء، كأنهم يمشون في نومهم، وجلسوا على أكوام الحجارة وسط بحيرة مظلمة من الصمت.

وقالت له أمه هامسة: ماذا سيفعلون بنا؟ وجاء صوت الجندي من الخلف: هش. ثم جيء بضوء مرفوع على عصا، وتقدم جنود آخرون فوقفوا أمامهم مثل المعلمين في المدرسة، وقال أحدهم: إذن فأنتم لم تروا أحداً منهم؟ وقالت أمه هامسة، مرة أخرى: الكلب، يتكلم العربية أيضاً. ونظر الجندي نحوها، ثم تلاقت نظراتهما، فقال: أنت. تعال إلى هنا. والتفت إلى جندي آخر يقف إلى جانبه وقال له: إنه لا يعجبني.

وقام، وذراعاه ما زالتا إلى فوق، وفكر: كانوا في المدرسة، في درس الرياضة، يعلموننا أن ننهض دون الاستعانة بأذرعتنا، وكان ذلك يبدو صعباً، فكيف تم الآن بسهولة؟ ونفض رأسه محاولاً أن يواجه الموقف، ولكن الفكرة استمرت «يتعلم الإنسان أموراً عديدة في لحظات غريبة، دون أن يقصد ذلك».

- قف هنا.

وقف...

- ارفع ذراعيك عالياً.

رفع ذراعيه إلى أعلى ما يستطيع.

- أين كنت قبل ساعتين؟

هذا هو التحقيق إذن. وقرر أن يكون حريصاً وأن يعرف أين يضع خطواته. ففكر قليلاً، ثم أجاب:

- نائماً.

- وهل تحتاج إلى كل هذا الوقت لتتذكر أنك كنت نائماً؟ حين أسألك أجبني بسرعة، فهمت؟

- فهمت يا...

وكان على وشك أن يقول «يا سيدي». ولكنه لم يستطع، وراوده ارتياح صغير أن الجندي لم يلحظ ذلك.

- وكيف تريدني أن أصدق ذلك؟ هل لديك برهان على أنك كنت نائماً في بيتك؟

وأشار برأسه إشارة ضعيفة نحو أمه الجالسة خلفه، وقال بصوت خفيض:

- اسألها، إنها امي.

- كنت نائماً مع أمك يا صبي.. أمك؟

وضحك الجنود، وكذلك ضحك رجل أو رجلان من الجالسين خلفه، وفكر: إنها ضحكة من يطالب بالبراءة، تواطؤ. ولكن ماذا يستطيعون غير ذلك؟

- حسناً، ألم يلفت نظرك أي شخص في القرية ليلة أمس؟

وفكر: بلى، أيها الغبي، سلمان.

- كلا.

- أبداً؟ أمتأكد أنت؟

- متأكد. كان كل شيء كالعادة؟

- كالعادة؟ ما هي العادة؟

- العادة.

حين رأى سلمان في أول الليل وقف مدهوشاً، وقال له سلمان: لا تقف كالأهبل أيها الرجل، انج بنفسك. ولكنه تقدم وصافحه،

وبعد قليل سأله:

- ماذا تفعل هنا؟

وأجاب سلمان ضاحكاً:

- «كالعادة».

وصرخ الجندي بصوت داو؟

- أسألك أيها الغبي.. ما هي العادة؟ كيف تبدو القرية كالعادة قل لي!

- لا شيء مثلها كل يوم.

- هناك آثار خطوات أيها الطفل.

- كلنا نمشي.

وصفعه، فدوت التلال القريبة بصوت أشبه بسقوط وعاء من النحاس، وقال الجندي:

- إذا كنت غبياً فأنت تستحق القتل. وكذلك إذا كنت ذكياً.

وراقت له الجملة، وكاد أن يمضي فيغطس داخلها ويفكر بها ويستنتج منها أموراً أهم مما تبدو لأول وهلة، ولكن الجندي قاطع ذلك التيار الذي كان دائماً يرتاح إليه، وقال بهدوء:

- اسمع. بعد قليل سترى كيف ينبغي أن تنسف البيوت. لا كما تفعلون أنتم.. إنكم لا تعرفون، الآن سنعلمكم كيف يشال البيت من

أساسه باللغم، وكيف يطير ويسقط كطابة الزجاج..

وفكر: ذلك لأنكم تأخذون وقتكم. انتظروا حتى نأخذ وقتنا.

- عد إلى مكانك.

وانفتل - كما تعلم في المعسكر - دون أن يدري لماذا، وسار، ولكنه ما إن خطا خطوتين حتى استدعاه الجندي مرة أخرى.

- تسير مثل العسكر؟ أين تعلمت ذلك؟

هذه اللحظة فقط أحس بالخطر، وأطلقت أمه من الوراء صرخة قصيرة، وفاحت رائحة غريبة أخذت تدور كإعصار صغير حوله، وانتشل نفسه، مستشعراً قوة مفاجئة تكسو جسده:

- مثل العسكر؟ كلا. إنني أسير كذلك دائماً، لقد خلقني الله كذلك.

- خلقك الله كذلك؟ أنت خلقك الله؟

وفكر بامتعاض: لا. كان جواب الضابط أفضل. ففي اليوم التالي لحادث القنبلة كان يقف في طابور الصباح، وكان يتعين عليهم أن يقوموا «بنزهة الصباح»، أي أن يسيروا خمسة أميال على الأقل محملين بأسلحتهم وأعتدتهم، وحين بدأت أعقاب البنادق المعلقة على أكتاف الرجال تقرع مطرات المياه المربوطة إلى خصورهم مع خطواتهم الأولى صرخ الضابط: قفوا. فوقفوا. وقال: أنت! تعال إلى

هنا. وتقدم خطوتين خارج الطابور، فنظر إليه الضابط وسأله: ألست أنت رجل القنبلة؟

- نعم يا سيدي.

- لماذا تمشي مرخياً كأنك سروال فارغ؟

- إنني أمشي دائماً كذلك، لقد خلقني الله هكذا.

- لا. إن الذين أرسلهم الله إلى هذا المعسكر خلقهم منذ البدء فدائيين، هل تفهم ذلك؟ لو خلقك الله مرخياً كما تبدو لما شعرت أبداً بضرورة الحضور إلى هنا... والآن، كف عن تحميله أخطائك.

- تحميل من يا سيدي؟

- الله.

وكان الجندي ما زال يكرر، نصف ضاحك:

- أنت خلقك الله؟

وأجاب بهدوء:

- نعم.

- حسناً، إنني أصدقك، ولكنه خلقك لتكون صادقاً، أليس كذلك؟ إذن كن صادقاً، هيا، أين تدربت على هذه المشية؟

- الآن، أيها الجندي، منك.

- مني؟ إنك رجل تفكر بسرعة. هذا لا يعجبنا كثيراً.

- نعم.

- نعم ماذا؟

- إنه لا يعجبكم كثيراً..

لقد صفا ذهنه تماماً الآن، وأحس بالتوازي مع الأشياء المحيطة به، وأخذ ينتظر، تاركاً الكلمات تتطاير من حوله كما يتطاير الرذاذ على مواجهة شيء مندفع بقوة إلى الأمام، وحين سمع أمراً بالعودة إلى مكانه استدار، ثم جلس إلى جانب أمه التي مدت كفها فشدت على ذراعه، وهمست:

- الحمد لله أنك بريء.

وصدمته الكلمة كمسمار. وأحس بجسده ينتفض، وفي اللحظة التالية بدت له الكلمات عديمة الجدوى ولا معنى لها وأنها خاضعة بعبودية لا مثيل لها للمسافات، وقال لنفسه: إن للكلمة ذاتها معنى آخر على بعد ثلاثة أمتار فقط، أمام ذلك الجندي المكسو بزغب أشقر. وكان بوسعه أن يمضي في فكرته إلى مدى أبعد لو لم يسمع أمه تسأله:

- وما الذي سيفعلونه الآن؟

- سينسفون البيوت.

- بيوتنا؟

- لماذا؟

- لأنني...

- لأنك؟

- لأنني بريء.

وخطر له أن يضحك ولكن ذلك كان مستحيلاً، فقد كان الجندي منصرفاً إلى التحقيق مع رجل آخر، وخشي أن تبدو ضحكته تواطؤاً من نوع قميء، وفجأة تذكر سلمان، كان يحمل كيساً، وهم الآن ينتقمون مما فعله. إن الامور تختلط بصورة تجعل اللغة عبثاً محضاً، فالتفت إلى أمه:

- أتذكرين سلمان؟

- لا.

- أنا أذكره، لقد نال براءته هو الآخر.

وصمت قليلاً وفجأة شعر بأن صوته أخذ لهجة التحقيق، كأنه يجري استكشافاً للأشياء المجهولة.

- لقد خبأت سلاحي، وقلت لي إنني مجنون، وعلي ألا أذهب مع سلمان.

- لو فعلت لهدموا بيتنا.

ونظر نحوها لحظة، وبدا له أنها تنظر إليه عبر الظلمة، نادمة

على الكلمة التي قالتها دون معنى، ولم يكن ثمة في رأسه أي جواب، لولا أن أتى من الأفق في اللحظة التالية: شق نصل البرق صدر الظلمة، ثم دوى الرعد الوحشي كانهيار داخل صدورهم، وفوق التلة شاهدوا بيوتهم تتقوض وسط شلال من الدخان واللهب، كان ضجيج الانفجارات يتوالى فيحطم صمت الليل الراكد، وأخذ يضحك ملء صدره، وكان صوت الرعد عالياً فلم يسمع الجندي ضحكاته، ولكن أمه سمعت.

شباط/فبراير ١٩٦٨

حامد يكفّ عن سماع
قصص الأعمام

انسل من بين السلكين كالقطة، وتبعه أسعد بحرص، محاولاً أن يفعل مثله تماماً، ولكني رأيت أسعد يتوقف ويتركه وحده، خيل إلي أنني سمعت همساً، كان أسعد يبدو شبحاً أسود يتحرك باستثارة في مكانه، واقترب حامد كثيراً، أكثر مما ينبغي لرجل مدرب مثله. ولم يكن بالوسع إيقافه، وبعد قليل غاب عنا ودوى رعد، وهرج نار تعلك شيئاً صلباً.

وعاد أسعد أولاً، ثم جاء حامد، وبدأت أسير أمامهما وأنا أستشعر فولاذ الرشاش داخل كفي أكثر سخونة من قبل، وضربنا في الوعر المعتم بأقدام صامتة.

قال أسعد: لقد اقتربت كثيراً، كان يمكن للشظايا أن تقتلك.

ولم يصدر أي جواب، فيما أخذ الظلام لسبب ما يشتد، ولاحظت أن حامداً يسير ورائي تماماً، يكاد يلمسني. في البدء تجاهلته، ثم قلت له:

- امشِ بعيداً عني، أنسيت؟

ولكنه لم يجب، وكونت في رأسي نقطتين لتقرير لا بد من كتابته الليلة: ارتكب حامد مخالفتين فظيعتين، في البدء اقترب كثيراً من الدبابة، ثم ظل ملتصقاً بي متجاهلاً التعليمات التي تقول إنه يجب أن يسير بعيداً عشرة أمتار عن أقرب رجل إليه، تحسباً للمفاجآت.

ومرة أخرى قلت لحامد:

- ابتعد عني.

وشهدت عينيه تنظران إلي صامتتين، ووقف ساكناً ورائي مباشرة يحمل سلاحه الثقيل ويلهث بصوت خافت، وحين خطوت خطا معي، محتفظاً بتلك الأشياء القليلة التي كانت تفصل بيننا.

وأخيراً وقفت ونظرت غاضباً، وقبل أن أقول شيئاً سبقني صوت أعلى قليلاً مما ينبغي:

- لم أعد أسمع.

- ماذا؟

ولكنه لم يجب، وكونت بيني وبين نفسي الصورة كلها: حين أطلق قذيفته عن ذلك القرب أفقده الدوي الراعد سمعه، هذه بديهية تعلمناها وعرفناها، فكيف غابت عن ذهنه؟

أمسكت يده ووضعتها على حزامي وأشرت له أن يتبعني وحين جلسنا بعد فترة لنستريح وضع كفيه على أذنيه وأخذ يهز رأسه بعنف، ثم قال، يائساً بعض الشيء:

- ليس فدائي الليل إلا الأُذن، إنه يرى بأُذنيه.

وعاد يدخل إصبعيه في أذنيه وينقب فيهما بهوس، ونظرت إليه جالساً هناك، بيني وبين أسعد، يكاد يكون غائباً عنا معاً.

وفجأة ضحك أسعد، وأخذ يهز حامد من كتفه:

- لماذا اقتربت إلى ذلك الحد؟

ولم يسمع بالطبع، ولكنه ابتسم شاعراً بلا ريب بغربة مفاجئة، وقلت لأسعد:

- لا تضحك على المسكين.. اتركه في همه، إنه يتعذب.

- ولكن لماذا اقترب إلى ذلك الحد من الدبابة؟ كان يستطيع أن يقصفها عن بعد مئة متر، فلماذا اقترب؟

- لا أعرف، اسأله.

- ولكنه لا يسمع.

- إذن فسؤالك لا أهمية له.

- لا أهمية لسؤالي لأنه لا يسمعه؟ أي هراء!

- هيا بنا نمشي، إنهم يتعقبوننا.

وقمنا، فيما وضع حامد أصابعه في حزامي وأخذ ينظر إلى الأرض، مثبتاً خطواته في الحفر الصغيرة التي كانت خطواتي تحفرها.

وفي العتمة فكرت فيما يتعين علينا أن نفعل بحامد حين نصل به إلى البيت، لا شك أن مشاكل كثيرة ستنبع عن هذه الحالة التي لم تكن بالحسبان، وفجأل قال لي حامد:

- لو رأيت كيف تقوضت كالورق، كادت ألسنة اللهب تصل إلي.

- هل أردت أن تتأكد بنفسك؟ ألذلك اقتربت؟

- لقد انفجرت كلها، مثل علبة ثقاب.

- أكنت تشك بفعالية سلاحك؟

- كالورق، أخذت تحترق.

كان الجو عبثاً، فأشرت له أن يسكت: كانت السماء قد بدأت تمطر رذاذاً، وشق الأفق خط من البرق مرة أو مرتين. كنت متيقناً أننا وصلنا إلى الأمان، وكان بوسعي أن آمر أسعد وحامداً بأن ينصرف كل واحد منهما إلى بيته، ولكنني لم أكن لأستطيع أن أتخلى عن حامد، فقلت لأسعد: سنذهب إلى بيتي.

◆ ◆ ◆

خبأنا السلاح أولاً، ثم صعدنا معاً إلى فوق. كان عمي يزورنا، فاستقبلني ببرود، وسلم على الضيفين بطرف أصابعه محاولاً أن يشعرهما بأنهما ضيوف الليل المتأخرون غير المرغوب فيهم.

ولكننا جلسنا دونما اكتراث، وأحضرت زوجتي الشاي فشربناه، وقالت، كعادتها، موضحة لي ماذا يتعين علي أن أكذب:

- تأخرت في المقهى، هل غلبك حامد بالطاولة كالعادة؟

ونظرت إلى حامد:

- هل غلبته هذه المرة أيضاً؟

وابتسم حامد، ناظراً حواليه بقلق، وقال أسعد:

- لقد غلبتهما معاً.

ونظر عمي إلينا بحذر، ثم نظر إلى أحذيتنا فلم يلحظ شيئاً، وأخيراً قال:

- في هذه الأيام، من الحكمة أن ينام المرء باكراً. أن يلجأ إلى بيته قبل حلول الظلام.

فقال أسعد:

- إننا نتسلى، ماذا يفعل المرء في بيته طوال المساء؟

- معك حق، ولكن من الأفضل - أريد أن أقول من الأمان - أن يتجنب المرء المشاكل. أنتم تعرفون.

وحاولت زوجتي تغيير الموضوع إلا إنها اختارت هدفاً خاطئاً، فقد توجهت نحو حامد وسألته:

- كيف حال لمياء؟

ونظر حامد إلى الأرض، متشاغلاً بالبحث عن شيء لم يسقط من يده، ولاحظ عمي هذه الحركة، فسأله:

- أعتقد أنها غير معجبة بسهرات الطاولة في هذه الظروف، أليس كذلك يا سيد حامد؟

وتدخلت:

- كل الزوجات كذلك. لا تحرجه.

- قد تخرج ذات يوم من المقهى فيلقون القبض عليك لأن انفجاراً وقع في القرية المجاورة. الشياطين لن تخلصك من بين أيديهم.. ساعتئذٍ لن تكون أية زوجة سعيدة.

- معك حق.

- أنا أريد مصلحتكم، هذه القضايا تحتاج إلى حكمة.

- صحيح.

- أنتم ما زلتم صغاراً لا تعرفون كيف يجب أن تتصرفوا، ولو

كنت مكانكم لمشيت.

- مشيت إلى أين؟

- إلى أي مكان خارج هذا الجحيم.

- هذا موضوع آخر.

- لا. هذا هو الموضوع، وأعتقد أن السيد حامد يوافقني لأنه لم يحمر مثلما احمرّ وجهك ووجه صديقك، أليس كذلك يا سيد حامد؟

ولكن حامد بالطبع، لم يسمع: كان قد اقترب كثيراً من الدبابة حين قصفها، ولم يعد يسمع.

- أليس كذلك يا سيد حامد؟

تمددت في مقعدي، وفقدت أعصابي رغم كل المحاولات الصامتة التي بذلتها، وقلت له:

- إن حامداً لا يسمعك.

- لا يسمعني؟

- لا. وهذا من حسن حظه، فقد أصيب بمرض مفاجئ في أذنيه وفر عليه الاستماع. أتعرف؟ إنه الآن لا يسمع ما تقول، ولا يسمع ما يقولون، إنه يسمع فقط لنفسه، ولذلك فمن المستحيل بعد، أن يضيع وقته، غداً ستسمع في الراديو أن هجوماً ما شنه

أشقياء مجهولون على معسكر، ولكنه هجوم فاشل لم يسبب أي ضرر. أنت وأنا وأسعد سنسمع بذلك، ولكنه هو، حامد، لن يسمعه. ذلك شيء حسن. لقد سمع صوتاً واحداً، وأخيراً، وهو الصوت الوحيد الذي سيظل بذاكرته.

قال عمي، وقد نفد صبره:

- لا أفهم شيئاً. هل شربتم؟ إن هذا الذي تقوله حزازير.

- اسمع يا عمي، هنالك قصة سأرويها لك أمام حامد، لأول مرة، هذه فرصتي لأرويها لأنه لن يسمعها.

كانت له أخت صبية، قبل عشرين سنة، حين سكنوا في جامع ما لأنهم فقدوا كل شيء. وكان هو مجرد طفل لا يعرف شيئاً حين اختفت أخته.

وظلت الأخت مختفية أسبوعاً وأسبوعين، وكان يسمع في البيت أشياء غريبة ومروعة عنها ولكنه لم يكن يفهمها تماماً، وذات يوم رآها في الطريق، أنيقة أكثر مما يجب، مع رجل مجهول. لقد تمسك بساقها، وحاولت التخلص منه فجرته على الأسفلت خمسين متراً نزف خلالها دمه، ولكنه لم يتركها، وأعادها إلى البيت.

وكانت نتيجة ذلك مروعة، فقد أصيبت ساقا الصبي بالتهاب خطير فيما بعد لأنه لم يعالج من كشوط عميقة سببها إرغامه على

الزحف فوق الأسفلت على طول تلك المسافة، مشدوداً إلى ساقي أخته.

وهكذا لزم حامد أرض الجامع الذي صار بيتاً لعشرين عائلة على الأقل.

كان ذلك منذ عشرين سنة، وكان عمر حامد آنذاك ست سنوات فقط. لقد لزم فراشه المهترئ فترة طويلة. واستمع طوال تلك الفترة إلى قصص لا نهاية لها، قصص العجائز، والأمهات، والأطفال. الخوف والذل والعويل. الحيرة والضياع. التخلي. قصص الأعمام بالذات عن الحكمة والظروف. ظل أربع سنوات يستمع، لقد استمع كثيراً، كثيراً جداً، وكانت هناك حقيقة واحدة في كل ما استمع إليه هي أن أخته هربت من البيت. ضاعت.

قلت لك، استمع كثيراً، كثيراً جداً. كان في ذلك المكان المملوء بالذل والخيبة والسقوط مجرد أذن تستمع وتستمع إلى أطنان من الكلمات والقصص والعويل لم يكن بوسعها أن تقتل ذبابة واحدة، لم يكن بوسعها أن تطمر حقيقة واحدة، هي أن أخته سقطت.

أما الآن فقد قرر حامد أن يكف عن الاستماع.

نظر عمي نحو حامد، مستشعراً حرجاً صغيراً، ولكن حامد نظر إليه بوجه صامت كالحجر، ثم نظر إلي، وأنا الذي أعرف: كانت أُذناه

مملوءتين، ما زالتا، بالدوي الذي لا يهدأ، كان العالم كله محتجباً وراء ذلك الصوت الذي لا يملأ السمع غيره.

وقلت لحامد:

- لا عليك، سيمر يومان أو أسبوع وسيعود إليك سمعك، ولكنك لن تنسى أبداً ذلك الصوت، إنه الصوت الوحيد الذي يطمر كل ما عداه ويدفنه.

وفي الشارع أخذت الأحذية الثقيلة للجنود تقرع بانتظام، وجاء صوتها مفاجئاً كأنه انصب في الغرفة من فوق، ونظرت إلى عمي: كان يرتجف.

ونظرنا جميعاً إلى حامد الذي أخذ ينقل بصره بيننا، مبتسماً داخل عالمه الصامت، الذي لم يكن يسمع فيه إلا صوت تقوض جبل الفولاذ.

وقال عمي مضطرباً حتى قدميه:

- ألا تسمعون؟

وأجاب أسعد بهدوء:

- اسأل حامد.

شباط/فبراير ١٩٦٨

ملاحظة

أم سعد تقول:

«خيمة عن خيمة... تفرق!»

أم سعد، المرأة التي عاشت مع أهلي في الغابسية سنوات لا يحصيها العد، والتي عاشت، بعد، في مخيمات التمزق سنوات لا قِبل لأحد بحملها على كتفيه، ما تزال تأتي لدارنا كل يوم ثلاثاء: تنظر إلى الأشياء شاعرة حتى أعماقها بحصتها فيها، تنظر إلي كما لابنها، تفتح أمام أذني قصة تعاستها وقصة فرحها وقصة تعبها، ولكنها أبداً لا تشكو.

إنها سيدة في الأربعين، كما يبدو لي، قوية كما لا يستطيع الصخر، صبورة كما لا يطيق الصبر، تقطع أيام الأسبوع جيئة وذهاباً، تعيش عمرها عشر مرات في التعب والعمل كي تنتزع لقمتها النظيفة، ولقم أولادها.

أعرفها منذ سنوات. تشكل في مسيرة أيامي شيئاً لا غنى عنه، حين تدق باب البيت وتضع أشياءها الفقيرة في المدخل تفوح في رأسي رائحة المخيمات بتعاستها وصمودها العريق، ببؤسها وآمالها،

ترتد إلى لساني غصة المرارة التي علكتها حتى الدوار سنة وراء سنة.

آخر ثلاثاء جاءت كعادتها، وضعت أشياءها الفقيرة واستدارت نحوي:

- يا ابن عمي، أريد أن أقول لك شيئاً. لقد ذهب سعد.

- إلى أين؟

- إليهم؟

- من؟

- إلى الفدائيين.

وسقط صمت متحفز فيما بيننا، وفجأة رأيتها جالسة هناك، عجوزاً قوية، اهترأ عمرها في الكدح الشقي. كانت كفاها مطويتين على حضنها، ورأيتهما هناك جافتين كقطعتي حطب، مشققتين كجذع هرم، وعبر الأخاديد التي حفرتها فيهما سنون لا تحصى من العمل الصعب، رأيت رحلتها الشقية مع سعد، مذ كان طفلاً إلى أن شب رجلاً، تعهدته هاتان الكفان الصلبتان مثلما تتعهد الأرض ساق العشبة الطرية، والآن انفتحتا فجأة فطار من بينهما العصفور الذي كان هناك عشرين سنة.

- لقد التحق بالفدائيين.

وكنت ما أزال أنظر إلى كفيها، منكفئتين هناك كشيئين مصابين

بالخيبة. تصيحان من أعماقها، تطاردان المهاجر إلى الخطر والمجهول.. لماذا، يا إلهي، يتعين على الأمهات أن يفقدن أبناءهن؟ لأول مرة أرى ذلك الشيء الذي يصدع القلب على مرمى كلمة واحدة مني، كأننا على مسرح إغريقي نعيش مشهداً من ذلك الحزن الذي لا يداوى.

قلت لها، محاولاً أن أضيعها وأضيع نفسي:

- ماذا قال لك؟

- لم يقل شيئاً. ذهب فقط، وقال لي رفيقه في الصباح إنه ذهب إليهم.

- ألم يذكر لك قبلاً أنه سيذهب؟

- بلى. قال لي مرتين أو ثلاث مرات أنه ينوي الالتحاق بهم.

- ولم تصدقي آنذاك؟

- بلى. صدقت. أنا أعرف سعد، وقد عرفت أنه سيذهب.

- فلماذا إذاً فوجئت؟

- أنا؟ أنا لم أفاجأ. إنما أعلمك بالأمر. قلت لنفسي: قد تكون ترغب في معرفة أخبار سعد.

- ولست حزينة أو غاضبة؟

وتحركت كفاها المطويتان في حضنها، ورأيتهما جميلتين

قويتين قادرتين دائماً على أن تصنعا شيئاً، وشككت إن كانتا حقاً تنوحان، وقالت:

- لا. قلت لجارتي هذا الصباح: أود لو عندي مثله عشرة. أنا متعبة يا ابن عمي. اهترأ عمري في ذلك المخيم. كل مساء أقول يا رب. وها قد مرت عشرون سنة، وإذا لم يذهب سعد، فمن سيذهب؟

وقامت، ففاض في الغرفة مناخ من البساطة. بدت الأشياء أكثر ألفة، ورأيت فيها بيوت الغابسية مرة أخرى، ولكنني لحقت بها إلى المطبخ، وهناك ضحكت وهي تنظر إلي، وأخبرتني.

- قلت للمرأة التي جلست إلى جانبي آنذاك في الباص أن ولدي أضحى مقاتلاً (بدا صوتها، بلا ريب، مختلفاً، ولذلك تذكرت) قلت لها أنني أحبه وسأشتاق له، ولكنه جاء ابن أمه..

- أتعتقد أنهم سيعطونه رشاشاً؟

- إنهم يعطون رجالهم رشاشات. دائماً.

- والطعام؟

- يأكلون كفاية، وكذلك يعطونهم السجاير.

- إن سعد لا يدخن، ولكنني متأكدة أنه سيتعلم ذلك هناك. يا نور عيني أمه! أود لو كان قريباً فأحمل له كل يوم طعامه من صنع يدي.

- يأكل مثل رفاقه.

- اسم الله عليهم جميعاً.

وصمتت لحظة، ثم دارت وواجهتني:

- أتعتقد أنه سينبسط لو ذهبت فزرته؟ أستطيع أن أوفر أجرة الطريق، وأذهب يومين إلى هناك.

وتذكرت شيئاً، فأكملت:

- أتدري؟ إن الأطفال ذل! لو لم يكن لدي هذان الطفلان للحقت به. لسكنت معه هناك. خيام؟ خيمة عن خيمة تفرق! لعشت معهم، طبخت لهم طعامهم، خدمتهم بعيني. ولكن الأطفال ذل.

قلت لها:

- لا ضرورة لأن تزوريه هناك، دعيه يتصرف وحده. إن الرجل الذي يلتحق بالفدائيين لا يحتاج، بعد، إلى رعاية أمه.

ونشفت كفيها بمريولها، وعميقاً في عينيها رأيت شيئاً يشبه الخيبة: تلك اللحظة المروعة التي تشعر فيها أم ما أنه صار بالوسع الاستغناء عنها، أنها طرحت في جهة ما كشيء استهلكه الاستعمال.

ودنت مني تقول:

- أتعتقد ذلك حقاً؟ أتعتقد أنه من غير المفيد أن أذهب إلى رئيسه فأوصيه به؟

وتحيرت قليلاً، مستشعرة التمزق ينهكها، ثم سألت:

- ... أم تراك تستطيع أنت أن توصي رئيسه به؟ تقول له: دير بالك على سعد. الله يخليلك ولادك.

وقلت لها:

- كيف؟ إن أحداً لا يستطيع أن يوصي بالفدائي.

- لماذا؟

- لأنك أنت تقصدين أن يتدبر رئيسه الأمر بحيث لا يعرضه للخطر. أما سعد نفسه، ورفاقه، فيعتقدون أن أحسن وصية بهم هي أن يرسلوا على الفور إلى الحرب...

ومرة أخرى جلست هناك، ولكنها بدت قوية أكثر مما رأيتها أبداً، وراقبت في عينيها وكفيها الخشنتين حيرة الأم وتمزقها، وأخيراً قر رأيها:

- أقول لك، لتكن توصيتك به إلى رئيسه أن لا يغضبه قل له: أم سعد تستحلفك بأمك أن تحقق لسعد ما يريد. إنه شاب طيب، وحين يريد شيئاً لا يتحقق يصاب بحزن كبير. قل له، دخيلك، أن يحقق له ما يريد.. يريد أن يذهب إلى الحرب؟ لماذا لا يرسله؟

سلسلة أعمال غسان كنفاني من منشورات الرمال

روايات

رجال في الشمس

أم سعد

ما تبقى لكم

العاشق/ برقوق نيسان/ الأعمى والأطرش

الشيء الآخر (من قتل ليلى الحايك؟)

عائد إلى حيفا

قصص قصيرة

موت سرير رقم ١٢

أرض البرتقال الحزين

عالم ليس لنا

عن الرجال والبنادق

القميص المسروق

مسرحيات

الباب

القبعة والنبي

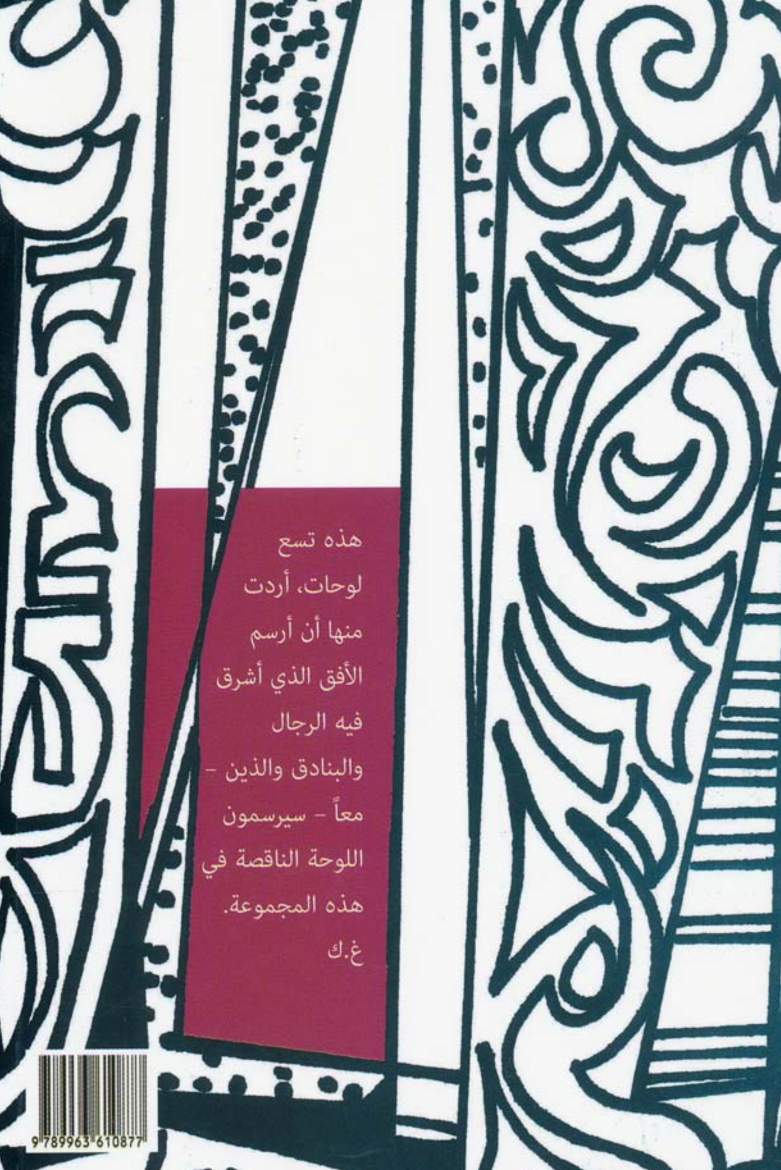
جسر إلى الأبد

دراسات

الأدب الفلسطيني المقاوم تحت الاحتلال ١٩٤٨-١٩٦٨

أدب المقاومة في فلسطين المحتلة ١٩٤٨-١٩٦٦

في الأدب الصهيوني



هذه تسع
لوحات، أردت
منها أن أرسم
الأفق الذي أشرق
فيه الرجال
والبنادق والذين -
معاً - سيرسمون
اللوحة الناقصة في
هذه المجموعة.
غ.ك

9 789963 610877